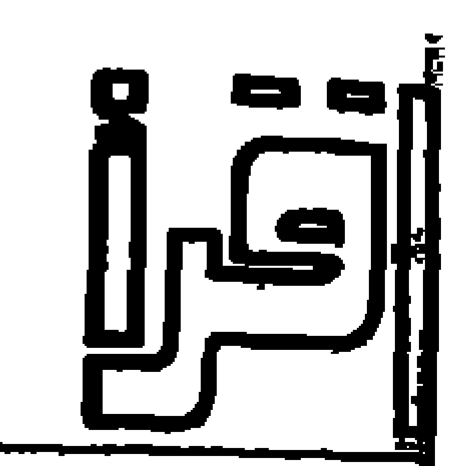
اقرأ

عبد القادر المغربي

الدين الأفغاني



دار المعارف



[٦٨٠]



عبد القادر المغربي

جمال الدين الأفغاني

ذكريات وأحاديث

الطبعة الثالثة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج م ع



جمال الدين الأفغاني

جاء فى كتاب « الإسلام والتجديد فى مصر » لمؤلفه الكاتب الأمريكى المشهور الدكتور تشارلس آدمس فى صفحة ٢٤٠ ما يلى :

« تفيض كتابات الشيخ عبد القادر المغربى بنفحة من »
« الروح النقدية الحرة التى اشتملت عليها كتابات جمال الدين »
« ومحمد عبده وتدل على ما بين تعاليم المغربى وتعاليم مدرسة »
« الشيخ عبده من تشابه . اهـ »

جمال الدين الأفغانى

ولد سنة ١٢٥٤هـ ١٨٣٩م — وكانت وفاته ١٣١٤هـ ١٨٩٧م

١

مهما بحث الباحثون فى تاريخ نهضة الشرق الإسلامى وتشعبت بهم الطرق فى تعيين أسباب يقظته وعوامل نهضته — تجدهم يرجعون فى ذلك أخيراً إلى شخصية فذة فى مواهبها أوحدية فى همما وعزائمها : هى شخصية جمال الدين الأفغانى . فإذا كان لغيره من رجال الإصلاح الذين عاشوا حوالى زمنه بعض المشاركة فى هذا السعى وفى تلتاة شعور الشرق والشرقيين فإن لجمال الدين وحده موقفاً لم يقفه غيره من أولئك الرجال . موقفاً ملؤه الإقدام والثبات والإلحاح والتجرد واشتداد العارضة فى المعارضة والتنقل من بلد إلى بلد والتعرض لخطر النفى والسجن والقتل أحياناً .

قام فى أواسط القرن الماضى رجال مصلحون من أبناء الشرق الإسلامى متقاربو الزمن حذروا قومهم وأنذروا ملوكهم وأمراءهم بدنو الخطر ، ووجوب التعجل بالإصلاح قبل وقوع الخطر :

مصطفى رشيد باشا ومدحت باشا فى تركيا . وميلكم خان فى إيران . وأحمد خان وأمير على فى الهند . وخير الدين باشا فى تونس . لكن موقف كل واحد من هؤلاء فى التنبيه والإيقاظ والجهر بالإصلاح كان محدوداً بحدود بلاده . وصوته الإصلاحي ما كان يتخطى آذان أهل مملكته . أما جمال الدين فقد كان موقفه محدوداً بحدود العالم الإسلامى وصوته الجهير كان يدوى فى سمع كل من عاش فى زمنه من أهل ملته . فأى قطر من الأقطار الإسلامية عربية كانت أو أعجمية لم يرتفع له فيه صوت ؟ أو لم يكن له فيه مريدون يحملون رسالة شيخهم فى وجوب النهوض ، وتحطيم القيود وإزالة العقبات أمام الناهضين ؟

وصراحته فى دعوته هذه هى التى كانت تحول أحياناً بينه وبين نجاحه فيما كان يسعى إليه .

بل لقائل أن يقول : إن إخفاق جمال الدين فى بعض ما حاوله هو سلم النجاح فى كثير مما حاوله ، ومن يدرى ؟ لعل جمال الدين لو صانع الحكام وسارع فى هواهم ، وأوّل لهم مخازيهم كما كان يفعل غيره من الشيوخ لخفت صوته ، وماتت دعوته . ولما خلفه فيها تلاميذ يصدعون بها ، ويلاقون الألاقىَّ فى سبيلها .

* * *

توفى جمال الدين فى الآستانة عام ١٣١٥ هجرية (١٨٩٧م) ونحن اليوم فى سنة ١٣٦٦ ﻫ (١٩٤٨ م) فيكون قد مر على وفاته نصف قرن و نيف .

مرور نصف قرن على وفاته نبه العالم الإسلامى إلى هذا الرجل وفضله على الشرق والشرقيين . فرأوا أن يحتفلوا له ، ويحيوا ذكراه بضرب من الذكريات يكون أشد علاقة بذاته ، واكثر اتصالا بتاريخ حياته :

ذلك أن ينقلوا رفاته من بلاد غربته إلى منبت أسلته . فتألفت فى بغداد لجنة من كبار أدبائها ، وأحرار رجالها ، لاستقبال جثمان المصلح العظيم من الآستانة إلى بغداد . ولما وصل إليها الجثمان احتفلت به الحكومة العراقية والشعب العراقى احتفالا عظيما ، وألقيت الخطب والقصائد فى تعديد مناقبه ، والإشادة بذكره ، والتنويه بفضله . ثم نقل الجثمان بطائرة خاصة إلى بلاد الأفغان وذلك فى كانون الأول سنة ١٩٤٤ م

هذا الخبر عن نقل جثمان السيد جمال الدين هاج فى خاطرى ذكرى أستاذى العظيم . ومثل أمام عينى شخصه الكريم ورأيت من وفاء الذمم أن أحتفل بمرور كل هذا الزمن على معرفتى به فوضعت هذا الكتاب فى سيرة حياته واصفاً من خبره وجميل

ذكرياته ، وما شاهدته واطلعت عليه من مختلف شئونه ما أرجو أن تكون فيه متعة للقراء ، وتبرئة لذمتى من قلة الوفاء .

والكلام على جمال الدين وتقصى أخباره له عدة شعب . وسأقتصر فى معظم ما أدونه عنه على ما عرفته من أمره بنفسى ، أو سمعته من الرواة بأذنى . أما التوسع فى نقل عامة أخباره فهذا إنما يكون فى كتاب ضخم لا فى رسالة تؤلف من عبارات معدودة ، وتقرأ فى دقائق محدودة .

٢

أول ما فوجئت باسم جمال الدين كنت تلميذاً فى المدرسة السلطانية التى أمر بإنشائها فى بيروت الوالى حمدى باشا سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢ م) وكان ناظر المدرسة يومئذ الشيخ أحمد عباس الأزهرى المشهور فى بلاد الشام بعلمه وفضله والتهاب وطنيته .

رأيت يوماً الشيخ أحمد بين الطلاب وهم فى ساحة المدرسة يرتعون ويلعبون وحوله طائفة منهم وبيده جريدة يشير بها إليهم . وسمعته يقول لهم — وقد سألوه عنها — إنها (العروة الوثقى) يصدرها السيد جمال الدين الأفغانى ويساعده فى تحريرها صديقى الشيخ محمد عبده المصرى . وأفاض الشيخ أحمد فى وصف (العروة) والغرض من إنشائها ووصف الرجلين وعلو مكانتهما . وبدرت منه التفاتة وإذا تلميذان صغيران يمران أمامه فأشار إلى أحدهما وقال : هذا ابن* الشيخ محمد عبده وأشار إلى الآخر قائلا : وهذا أخوه حمودة .

---

* واسمه (محمد) على اسم والده أو محروس فقد اشتبه ذلك على وقد مات رحمه الله قبل أن يتم العشرين .

وكنت لا آبه بهذين التلميذين، ولا أرتاح لرؤيتهما، فصرت من يومئذ أنظر إليهما بإجلال ، وأحب التقرب منهما والحديث إليهما . ورجعت إلى طرابلس الشام من المدرسة السلطانية عام ١٣٠١ هـ حاملا إلى صديقى الشيخ رضا صاحب المنار رحمه الله خبر (العروة الوثقى) ومنشئيها وأخذت أبحث معه عن أعدادها وكانت ثمانية عشر عدداً مبعثرة لدى بعض فضلاء طرابلس الذين كانت تأتيهم عفواً أو بطلب منهم . فجعلت التقطها من عندهم لأنسخها وأعيدها إليهم . وكان شريكى فى هذا الحرص الشيخ رشيد وكان هو ينسخ المهم من مقالاتها أما أنا فكنت أنسخها بقلمى من ألفها إلى يائها ثم جمعت كراريسها فى مجلد* بلغت صفحاته خمسمائة صفحة مازال عندى إلى اليوم وهذه صورة ما كان مكتوباً على رأس كل عدد منها :

---

* أتممت (العروة) نسخاً وبياضاً سنة ١٣٠٧ هـ وفى سنة ١٣٢٨ هـ طبعت فى بيروت على نفقة الشيخ حسين الحبال صاحب جريدة أبابيل.

العروة الوثقى

لا انفصام لها

جريدة سياسية أدبية تصدر يوم الخميس

مدير السياسة

جمال الدين الحسينى الأفغانى

المحرر الأول

الشيخ محمد عبده

ترسل الجريدة إلى جميع الجهات الشرقية

قد عينت أجرة البريد خمسة فرنكات فى السنة لمن تسمح بها نفسه

من شاء أن يبعث إلينا بتحارير أو رسائل فى أى موضوع كان رغبة نشره فى الجريدة أو التنبيه على أمر مهم فليرسلها إلى إدارة الجريدة بهذا العنوان : 6. Rue Martel à Paris

وهذه صورة ما كتب فى فاتحة العدد الأول :

العدد الأول من

العروة الوثقى

لا انفصام لها

يوم الخميس فى ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير . هذا ما تمده العناية الإلهية من قول الحق متعلقاً بأحوال الشرق وعلى

الله المتكل فى نجاح العمل . خفيت مذاهب الطامعين أزماناً ثم ظهرت . بدأت على طرق ربما لا تنكرها الأنفس ثم التوت . أوغل الأقوياء من الأمم فى سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا بيداء الفكر إلخ ...

وهذه الفاتحة هى خلاصة برنامج الغرض الذى أنشئت مجلة (العروة الوثقى) من أجله : تنبيه الضعفاء إلى ما يريده الأقوياء بهم . وشرح الأسباب التى أدت إلى ضعف الضعفاء وقوة الأقوياء . ويريد بالأقوياء سياسى أوربا وزملاءهم سياسى الشرق الذين ساروا على آثارهم وقلدوهم فى استبدادهم بالضعفاء والتفريط في مصالحهم .

فالأفغانى وعبده كانا يريدان أن يكون لهؤلاء الضعفاء وهم المسلمون دول قوية آخذة بأسباب المدنية والعمران الموصلة إلى العزة والاستقلال مع مراعاة تعاليم الإسلام الأساسية .

* * *

هذه الفكرة التى تلقنتها من العروة الوثقى اختمرت فى نفسى واستولى سلطانها على شعورى وحسي . فأعطيت (العروة) كل وقتى دراسة وتفهماً . وكنت أحياناً أعنى بشرح ألفاظها وتعابيرها . مثال ذلك قولى تعليقاً على قول العروة (وبلغ صوت وقوة القواد الإنجليز إلى أقاصى المسكونة) : «الوقوقة فى الأصل

أصوات الطير ونباح الكلاب » — وعلى قولها: (لهذا لا تمكين إنكلترا بدسائسها فى قطر إلا عند سكون أهله) : « تمكن » أى تبيض وتفرخ من أمكنت القملة أو الجرادة إذا ألقت بيوضها . والمكن بيض الضبان والجراد » .

فلا جرم أن « العروة الوثقى » مهدت بين يدى ناشئة العرب مناهج فى الكتابة وأساليب الإنشاء ما كانوا يعهدونها من قبل ونبهت إلى وجوب استعمال كلمات اللغة الفصحى والاستعانة بها على إيراد المعانى العصرية ومطالب الحياة الاجتماعية الجديدة : كقولها (وبنوا قلاعاً من العساكر ، مدرعة بلؤام من حراب البنادق ، مسيجة بآلا ت من صنع هنرى مارتن) و« اللؤام » تلاؤم ريش النبال ، فاستعلمتها (العروة) فى تلاؤم حراب البنادق .

وقد تضمن العدد الأول مما يحتاج إلى الشرح من فصيح اللغة نحو ثلاثين كلمة . وعلى هذا قد تبلغ الكلمات اللغوية فى أعداد العروة كلها زهاء خمسمائة كلمة . ومن هذه الكلمات قوله : (وتاه فيها الخريت وضل المرشد)، (لم يكن له أثر إلا فى حواشى طوامير الأوهام)، (لم ينل من غضاره ما يقوم بحفظ حياته)، (التعصب لفظ تلوكه الألسن بحيث صار تكأة للمتكلمين : يلجأ إليه العيي فى تهتهته ، والذملقانى فى تفيهقه)،

(على غوارب أمواج الحوادث نائمون . تقذفهم كريبة وتتلقفهم أخرى) والكريبة الداهية العظمى .(هل يبعد أن يمتد لياق المهدى السودانى إلى الأقطار الإسلامية الأخرى) ، « واللياق »شعلة النار . (واشتهرت إنكلترا بخلابة الشرقيين وأخذهم بالرويغة . . . ولم يكن قصدها من هذه الزغزغة إلا أن يكون السودان فراطة لاحق لأحد فيه) إلى غير ذلك من الألفاظ والتعابير التى يجدر اقتباسها وتداولها .

وقد استعملت العروة كلمة (النقاط) جمع نقطة بمعنى المركز العسكرى "Poste" أو بمعنى موقع إستراتيجى كما يقولون اليوم ، فقالت: (وتمكن الإنكليز من النقاط الحربية فى البحر كمالطة وقبرص) ولعل العروة أول من استعمل (النقطة والنقاط) بهذا المعنى . والأغلاط اللغوية فى العروة قليلة جداً من ذلك قولها : (وينقبون على المصالح الوطنية) صوابه (عن المصالح) وقد استعملت من الكلم مالا عهد لنا به مثل جمع (خان) بمعنى ملك الترك على (خوانين) والمعروف بيننا جمعه على (خانات) . ولعلها إنما جمعته على (خوانين) تفادياً من اشتباهه بخانات المسافرين . ومن كناياته الجميلة غير المعهودة قوله : (وهو تحت الجناح) أى أن الغرض المطلوب هو فى الكف أو فى متناول اليد . ومن معانى الجناح (الإبط) كأنه قال إن الشيء

المطلوب تحت الإبط . على أن الجناح يكون بمعنى اليد لكن كلمة (تحت) تشعر بأن المراد بالجناح الإبط لا اليد .

وهكذا نرى أن (العروة) تضمنت من الكلمات الفصيحة والتعابير الرشيقة ما شاع على ألسنة الكتاب وأسنة أقلامهم ، محتذين مثاله ، متداولين استعماله . فكانت العروة الوثقى وأساليبها الكتابية أساساً لنهضة جديدة فى الإنشاء العربى وتجديد الأساليب الكتابية العربية .

أما المطالب والموضوعات الاجتماعية والانتقادية والأخلاقية فحدث عن كثرتها وفائدتها ولا حرج .

وأما الشؤونات السياسية فهى بيت القصيد ، وحب الحصيد من الأغراض التى أنشئت لأجلها (العروة) ، وتراها تدور حول التشنيع على الإنكليز فى أطماعهم ، وهيج النفوس عليهم ، وتأريث نيران الفتن من حواليهم . وما قالته منذ ست وستين سنة كأنه مما يقال اليوم . اسمعوا ما قال فى العدد الأول (وإنما رأت الروسية أن الوقت وقت العمل فى آسيا فطلبت الراحة من جهة حدودها الأوربية لتتفرغ لإجراء مقاصدها فى أطراف الهند . وإن الفزع من هذا الانتقال الفجائى قد ظهر أثره فى جميع الجرائد الإنكليزية . ليت الإنكليز صرفوا قوتهم ووجهوا عزيمتهم لدفع ما يلم بهم من الخطر القريب ، ولم يقعوا فى

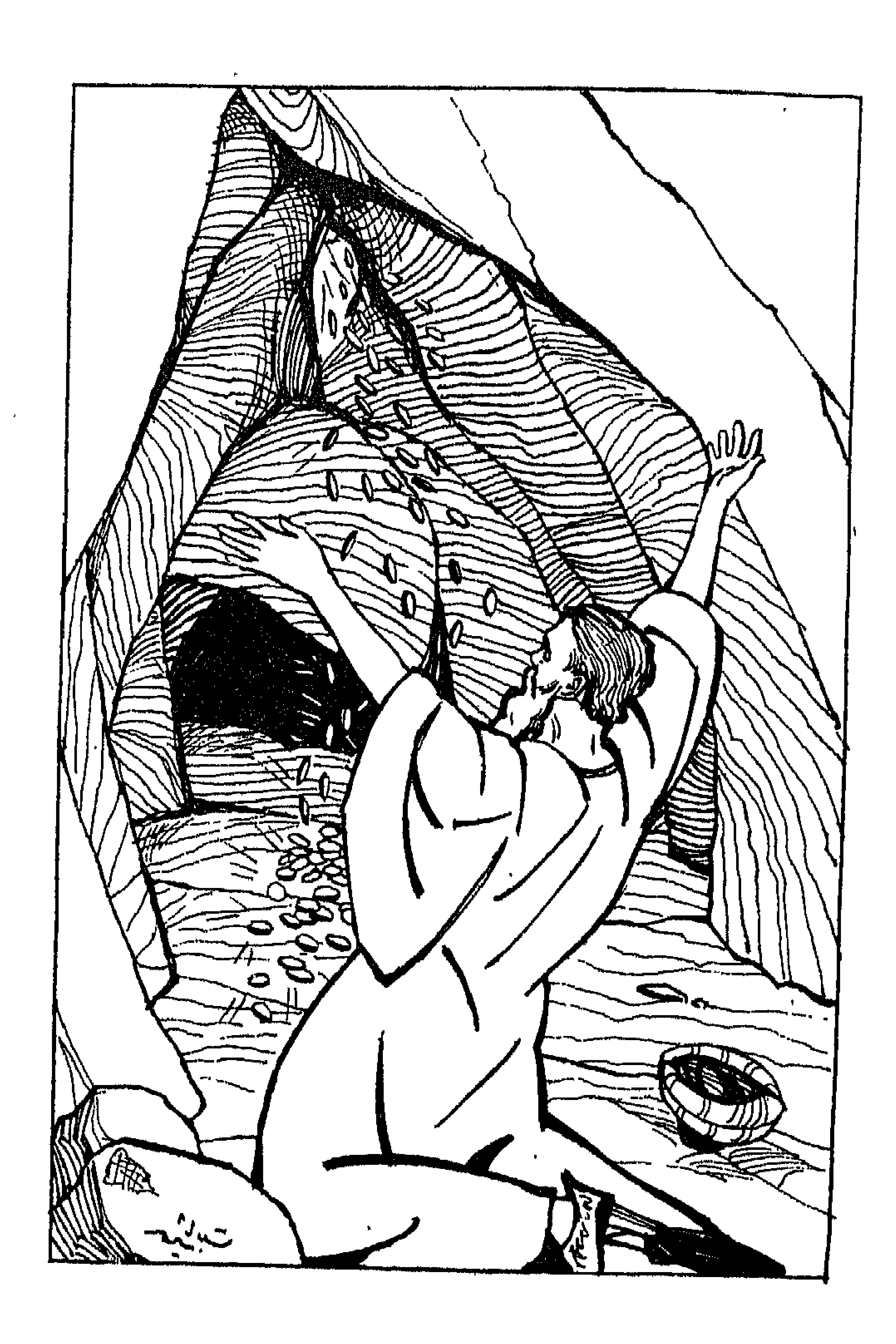
شرك المسألة المصرية فإن ما كانوا يخافونه من مصر كان وهماً صرفاً ، فلما طرقوها أوقدوا فتنة ما كانت تخطر ببال أحد . ثم هم بعد ذلك فى عجز عن علاجها إلخ . . .)

وكانت العروة تتفنن فى أساليب التأليب على الإنجليز وتصغير شأنهم والتحذير من الوقوع فى حبائلهم حتى تلجأ أحياناً إلى رواية مثل الأسطورتين التاليتين :

أسطورة

ذكروا فى أساطير الأولين أن هيكلا عظيما كان خارج مدينة اصطخر وربما أوى إليه بعض سراة الليل إذا اشتدت بهم وحشة الظلام . وما أوى إليه أحد إلا غالته المنية ، فيأتى طلاب أثره لقص خبره ، فيدخلون الهيكل فى ضوء النهار فيجدونه ميتاً . ثم لا يهتدون لسبب موته لسلامة بدنه من كل ما يعهد سبباً للموت . واشتهر أمر الهيكل بين السابلة والقطان وأخذ كل قاصد حذره من المبيت به حتى ضاقت الدنيا برجل فاختار الموت على الحياة وصعب عليه انتحار* نفسه بيده فذهب إلى الهيكل

* الانتحار فعل لازم فكان الظاهر أن يقول صعب عليه الانتحار أو أن ينحر نفسه والأفصح أن يقول : بخع نفسه



لعله يصادف منيته . فإذا بالقرب منه رجال نصحوه وحذروه عاقبة الهلاك فلم يصغ إليهم . وقال إنما أتيت لتلك العاقبة . وانفلت من نصحائه إلى حيث يظن هلاكه . فلما توسط الهيكل فاجأته أصوات مزعجة هائلة ، كأن جمعاً عظيما يخاطبه : ها نحن وصلنا لتمزيق بدنك ، وسحق عظامك . فصاح اليائس :ألا فاقدموا فقد سئمت الحياة . فلم يتم كلامه إلا وقد حدثت قرقعة شديدة ، وانحل الطلسم ، وانشق الجدار ، وتناثرت منه الدراهم والدنانير ، وتفتحت أبواب الكنوز . فاطمأن الخائف ونام حتى أصبح . ولما أضحى النهار وجاء الواقفون على خبره ليحملوا جنازته وجدوه فرحاً مستبشراً يسألهم بعض الأوعية ليحمل ما وجده من الذهب والفضة . فاستخبروه قصته . فبعد البيان علموا أن هلاك من هلك إنما كان بالفزع من تلك المزعجات التي لا حقيقة لها : وبريطانيا العظمى هيكل عظيم يأوى إليه المغرورون إذا أوحشت نفوسهم ظلمات السياسة فتدركهم المنية بمزعجات الأوهام . وكم هلك بين جدرانه من لا مريرة لهم ، ولا ثبات لجأشهم . وأخشى أن يسوق اليأس إلى ذلك الهيكل قوى المريرة ، ماقت الحياة فما تكون إلا هنيهة يصعد فيها صوت اليأس فينقض الجدار وينحل هذا الطلسم الأعظم .

أسطورة أخرى

قالوا إن زنجياً أسود هائل المنظر غليظ الشفتين مقلوب المشفرين جاحظ العينين ، أحمر الحذقتين ، بشع الوجه ، أفطس الأنف ، منكر الصورة ، كان يحمل ولداً فى ليلة مظلمة يسير به فى زقاق من أزقة بغداد. والولد – كلما نظر إليه – يفزع ويبكى وينتحب ويصيح ويعول . وكلما اشتد به الفزع ربته الزنجى ومسح ظهره ، وقال له : لا تخف ياولدى فإننى معك وأنيسك وحافظك من كل شر. وبعد تكرير هذه الملاطفات من الزنجى للصبى قال الصبى : يا سيدى إنما خوفى وفزعى منك لا من وحشة الظلام . وهكذا شأن حكومة إنكلترا مع المصريين . كلما اشتدت الخطوب ، وعظمت المصائب ، وزاد الخلل فى البلاد المصرية مسحت حكومة بريطانيا على ظهر توفيق باشا ووزرائه بيدها الناعمة (وإنما هى نعومة الثعبان) وأقبلت على الأهالى تمنيهم بوعودها المرونقة* وتقول لهم : لا تحزنوا فإنى معكم . وجميع المصريين من توفيق باشا إلى وزرائه . إلى عامة

* الرونق الحسن . وقد اشتق الكاتب منه اسم مفعول فقال مرونق أى مزين مزخرف .

الأهلين يجأرون وينادون إنما خوفنا وجزعنا منك ، وراحتنا واطمئنانا بتنحيك عنا وتركنا وشأننا . ا هـ .

* * *

هذا نموذج من جهد جمال الدين الأفغانى ونشاطه السياسى . وهذه هى أفانينه الخلابة التى كان يوزعها على قرائه فى « العروة الوثقى » وكنت أدرس مضامين (العروة) دراسة عميقة . وأستوحى من خلال سطورها أفكارا وآراء : منها ما كانت تقبله (البيئة) وترضاه . ومنها ما كانت تستنكره وتأباه . وأخطر ما كنت أفكر فيه وألهج به وأدعو إليه من مبادئ العروة (الإصلاح الدينى) . وكان رفيقى ومؤنسى فى هذا الطريق الوعر الشيخ رشيد رضا رحمه الله . وما كان يلذنا شىء بقدر ما يلذنا أن نعرف خبراً جديداً أو حديثاً مستطرفاً عن جمال الدين الأفغانى . فكان يقصه أحدنا على الآخر ويمتن عليه به مفاكهاً مداعباً :

قال الشيخ رشيد فى مقدمته لكتابى (الجزء الثانى من البينات) :
« وأكبر ما أثر فى أنفسنا وعقولنا وظهر أثره فى إنشائنا لفظاً ومعنى جريدة (العروة الوثقى) لحكيمى الشرق ومجددى نهضته العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية والدينية والإسلامية . وجدت أعداداً منها فوجدتنى دخلت فى حياة جديدة . وأطلعت صديقى المغربى على تلك الأعداد كدأبنا فى اطلاع كل منا الآخر على مايستحسنه

ويراه مفيداً . ثم طفقت أبحث عن بقية الأعداد وأستنسخ ما أجده منها وينسخ هو أيضاً حتى كملت لنا ورسخت آراء الحكيمين وأفكارهما أو مذهبهما الإصلاحى فى أنفسنا . وقد قال لنا مرة أستاذنا الشيخ حسين الجسر : إن بينكما جوامع كثيرة أخصها حب السيد جمال الدين الأفغانى واتباع أفكاره . فقلنا له : بل أخصها تتلمذنا لفضيلتكم وتلقينا عنكم . » ا هـ .

وبلغنا أن مصوراً مسيحيا من أهل بلـــدنا (طرابلس) عاد إليها بعد غيابه عنها فى بلاد الهند سنين متطاولة فأخبرنا إنه اجتمع بجمال الدين الأفغانى وأنه يروى عنه أخباراً طريفة . فهرعنا إلى محل عمله ودمرنا عليه . وكنا نلح بالاستفسار عن جمال الدين ونلهيه أحياناً عن شغله الذى بين يديه . فكان يروى لنا ما يعرف من أعماله وأقواله . ويصفه لنا وصف العارف به ، الواقف على حقيقة خبره . وعرف أهل طرابلس منا حب استطلاعنا لأخبار السيد الأفغانى فكان كل من أراد التودد إلينا أو إدخال السرور علينا يجيئنا بخبر عنه .

ومن ذلك أن الشيخ على العمرى المشهور بالصلاح والكرامة رحمه الله صادفنا فى الطريق يوماً فأطلعنا على كتاب جاءه من الآستانة بتوقيع (جمال الدين الخطيب) وقال لنا : إنه لا يعرف أحداً فى الاستانة مسمى بجمال الدين إلا السيد الأفغانى يريد

بذلك مطايبتنا ، وإدخال السرور علينا . وكانت مطايبة الناس من عادته . فإذا الكتاب بتوقيع (جمال الدين الخطيب) . وكنا لا نعلم من هو هذا (الخطيب) . والأفغانى لا يلقب نفسه بالخطيب ، ولم يشتهر به . والكتاب حسن الخط جيد الإنشاء . وقد ظهر لنا من مضمونه أن كاتبه وقع فى ضائقة روحية أقلقته فهو يلتجئ إلى الشيخ العمرى فى الدعاء له فيكشف الله عنه ما هو به فازددنا شكا فى أن يكون الكتاب من السيد الأفغانى . ثم تبين أخيراً أن صاحب الكتاب دمشقى فاضل من آل الخطيب ، يتعاطى النيابات الشرعية ، وهو أخو صديقنا الأستاذ زكى بك الخطيب المحامى والسياسى المشهور .

وكثرة اهتمامنا بالأفغانى والشيخ عبده والحرص على الاتصال بالوافدين من مصر والآستانة لمعرفة خبرهما والتحدث بما يروى عنهما من آراء وأفكار قد تكون غير مألوفة ، حتى جعل الناس فى بعض الأحايين يقعون فينا ويتقولون علينا . وكنا لا نبالى ذلك ونكثر من الجدل والدفاع عن الشيخين وتعاليمهما ، ووجوب الانتفاع بعلمهما ونصحهما .

بقيت على هذه الحال فى طرابلس زهاء عشر سنين ١٣٠١ — ١٣١٠ هـ ثم برحتها إلى الآستانة من أجل الدخول فى بعض معاهدها الدينية فمكثت ثمّ سنة واحدة اجتمعت خلالها

بجمال الدين مراراً وهأنذا أصف ما شاهدته منه ، وأروى ما سمعته عنه . غير أنه يحسن قبل الشروع فيما إليه قصدت أن آتى على خلاصة من سيرته لتكون تمهيداً بين يدى السبب الذى جعله يتخذ الآستانة مثوى أخيراً له :

٣

نشأ جمال الدين فى مدينة كابل عاصمة الأفغان . فهو إذن أفغانى . والإيرانيون يقولون إنه إيرانى . وهذا الخلاف فى نسبة جمال الدين من أعجب الأمور وأدعاها للاستغراب . كما أن الرجل عاش فى عصرنا وبلادنا . وأعماله ومساعيه تقع تحت مواقع أبصارنا . والأدلة متوفرة لمعرفة حقيقة نسبه . فالشك فى أفغانيته يورثنا الشك فى كثير من أخبار رجال التاريخ الأقدمين ونسبتهم ومناشئ مناقبهم ومثالبهم . وقد كنت كتبت مقالا نيراً فى (جمال الدين أهو أفغانى أم إيرانى) نشر فى المؤيد* سنة ١٣٢٧ ﻫ (١٩٠٩) ولعل مقالى هذا من أصرح ما كتب فى هذا الموضوع . ولم يبلغ السيد الثامنة عشرة من عمره حتى أتم دراسته للعلوم المختلفة وعرض له أن يسافر إلى الهند لدراسة بعض العلوم العصرية ؛ وقصد الحجاز لأداء الفريضة سنة ١٢٧٣ هجرية . ثم رجع إلى الأفغان وتقلد إحدى وظائفها . ووقع خلاف بين أمراء الأفغان فانحاز السيد إلى (محمد أعظم خان) وكان له بمثابة وزير دولة .

* ثم نشر هذا المقال في كتابي البينات جزء ١ صفحة ١٥٠ فليراجعه من أراد .

وشايع الإنكليز (شير علي) فتغلب هذا على محمد أعظم . ومن هنا نشأت العداوة بين الإنكليز وجمال الدين واشتهرت حتى قال سليم بك العنحوري فى شعر له :

فكأنني بيكونسفيلد[1] زمانه وكأنها من بغضها الأفغاني

وأخيراً تغلب (شير علي) على منافسه فلم يتعرض للسيد بسوء لكنه أضمره له . وأحس السيد بذلك فرحل عن الأفغان سنة ١٢٨٥ هـ ومر بالهند إلى مصر فأقام أربعين يوماً . قال الأستاذ الشيخ محمد عبده : (تردد فى أثنائها على الأزهر وخالطه كثير من الطلبة السوريين وسألوه أن يقرأ لهم شرح الإظهار فقرأه لهم فى بيته) اهـ .

ويظهر أنه كان للسوريين دالة عظيمة على السيد مذ رضى أن يقرأ لهم (الإظهار)[2] وعلم النحو أقل شأناً من أن يشتغل السيد فى نشره وتلقينه الطلاب ، إذ أن الحكمة والفلسفة والسياسة العليا كانت مطمع نظره وأكثر ما يهمه نشره من العلوم بين مريدية سواء أكانوا من أهلها أم لا . وقد روى بعض الفضلاء أن الشيخ محمد عبده قال: «كان السيد جمال الدين يلقى الحكمة

---

(١) بيكو نسفيلد Beaconsfield هو الوزير الإنكليزى السياسى الكبير وكان يدعى فى أول الأمر دزرائيلى (١٨٠٤ - ١٨٨١ م)

(٢) الإظهار متن مختصر فى علم النحو لمؤلفه (البركوى) اشتهر أمره عند الأتراك العثمانيين وسكان الولايات العربية التابعة لهم فى ذلك العهد .

لمريدها وغير مريدها . ومن خواصه أنه يجذب مخاطبه إلى ما يريد وإن لم يكن من أهله . وكنت أغبطه على ذلك لأنني تؤثر فيّ حالة المجلس للوقت فلا تتوجه نفسي للكلام إلا إذا رأيت له محلا قابلا واستعداداً ظاهراً » أهـ

ثم شخص السيد من مصر إلى الآستانة فى عهد الصدر عالى باشا وكان بزيه الأفغانى : (جبة وكساء وعمامة عجراء) فعظم أمره وارتفعت منزلته . وأطلق لسانه بسائق من طبعه فى وجوب الإصلاح والتعجيل به قبل فوات وقته .

قال المستر بلنت الإنكليزى : « إن سعى العثمانيين فى تحويل حكومتهم إلى دستورية فى بادئ الأمر قد ينسب إلى شيء من تأثير جمال الدين فقد أقام فى عاصمتهم يحاورهم ويخطب فيهم » .

وهكذا كان تأثير جمال الدين فى نهضة مصر أيضاً ؛ فقد خطب سعد باشا زغلول فى بعض الحفلات وقال للمصريين : « لست خالق هذه النهضة كما قال بعض خطبائكم ، لا أقول ذلك ولا أدعيه بل لا أتصوره . إنما نهضتكم قديمة من عهد محمد على وعرابى . وللسيد جمال الدين الأفغانى وأتباعه وتلاميذه أثر كبير فيها وهذا حق يجب أن لا نكتمه ؛ لأنه لا يكتم الحق إلا الضعيف » .

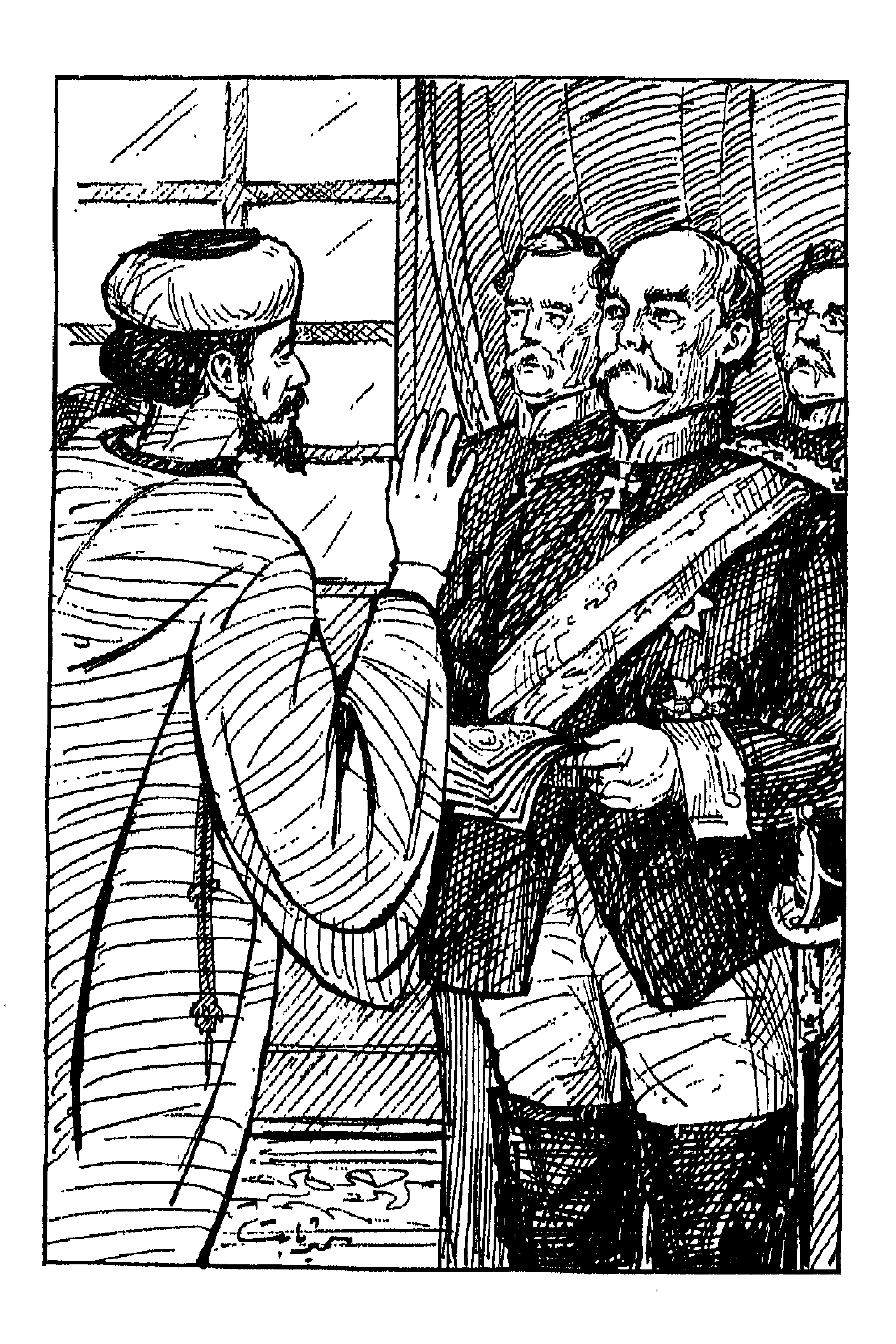
عين جمال الدين وهو فى الآستانة عضواً فى مجلس المعارف الأعلى وألقى خطاباً فى حفلة (دار الفنون) باللغة التركية التى أتقنها بعد ستة أشهر من نزوله الآستانة . فأنكر المشايخ من خطابه بعض الآراء . وكان شيخ الإسلام حسن فهمى أفندى متغيراً عليه فقام علماء الآستانة وخطباء مساجدها يردون على جمال الدين ويسفهون قوله . وكان يومئذ فى الآستانة والدى (مصطفى ابن أحمد المغربى) فوضع رسالة فى الرد عليه أيضاً مازالت مخطوطة فى مكتبتى إلى اليوم وسماها (عين الصواب فى الرد على من قال إن الرسالة والنبوة صنعتان تنالان بالاكتساب) قال فى آخرها : وكان الفراغ من تبييضها فى ذى الحجة سنة ١٢٨٧ ﻫ . وأكد الشيخ محمد عبده أن السيد جمال الدين لم يقل هذا فى مسألة النبوة والرسالة ، وإنما مشايخ الأتراك تحاملوا عليه فألصقوا التهمة به وهو منها براء . وكان والدى لا يعرف التركية فلم يتبين حقيقة الواقع فكتب فى رسالته ما عرفه من مذهب أهل السنة والجماعة وما قرروه فى هذه المسألة التى قال فيها صاحب جوهرة التوحيد :

ولم تكن نبوة مكتسبه
ولو رقى فى الخير أعلى عقبه
بل ذاك فضل الله يوتيه لمن
يشاء جل الله واهب المنن

غير ان والدى فى مقدمة رسالته أطال فى التشنيع على السيد وتعييره بالتهمة التى نسبت إليه . وأرجو ألا يكون مؤاخذاً لما وقر فى نفسه من حسن القصد وسلامة النية .

ويظهر أن حادثة (دار الفنون) أثرت فى نفس جمال الدين تأثيراً جعله ضعيف الثقة بالعلماء والاعتماد عليهم . فقد رووا أن السلطان عبد الحميد لما أراد أن يوفد بعثة من علماء الآستانة لنشر الإسلام فى بلاد اليابان بناء على طلب إمبراطورها واستشار جمال الدين لم يوافقه، وكان هذا فى جيئته الثانية إلى الآستانة كما سيأتى تفصيله . وقال للسلطان : « إن العلماء نفروا المسلمين من الإسلام فأجدر أن ينفروا الكافرين . والرأى أن ترسل إلى الإمبراطور هدايا مع كتاب تعدونه فيه بتلبية طلبه . ثم نجتهد فى تخريج طائفة من العلماء يصلحون للدعوة ويدخلون إليها من بابها المعقول » .

أدت هذه الحادثة أخيراً (حادثة خطابه فى دار الفنون) إلى خروج السيد من الآستانة مبعداً مظلوماً ، فنزل مصر لا على نية الإقامة فيها ، غير أن رياض باشا حمله على البقاء . وعينت له حكومته ألف قرش فى الشهر . فأقبل فضلاء مصر عليه كما كان يفعل فضلاء سوريا فى مدة إقامته القصيرة الأولى . وكان يدرس العلوم المختلفة من فلسفة وحكمة وغيرهما فى داره فكان يفكك



عن العقول عُقَل الأوهام. ويرشد من حوله إلى حقائق الإسلام، فإذا ذكرت كلمة التوحيد مثلا قال: « إن الناس لو فهموا معناها لما استعانوا إلا بالله. ولما طلبوا المدد إلا من الله . وإذا ذكر التصوف قال : « أنا لا أفهم معنى لقولهم : الفناء فى الله. وإنما الفناء يكون فى خلق الله . ومعنى الفناء فيهم تعليمهم وتنبيههم إلى وسائل سعادتهم وما فيه خيرهم » . وكان يقول : « ما أكثر الجرائد السياسية والعلمية والأدبية فى هذه البلاد! مع أن أهاليها فى حاجة إلى جريدة أبسط من ذلك كله : إلى جريدة تقول لهم اغسلوا أرجلكم اغسلوا أيديكم اغسلوا أثوابكم » .

وقد نشأ له من جراء صراحته هذه وتجديده فى العلم والدين وفهم الحياة ، مريدون كثيرون فحسده الشيوخ ولا سيما من يعد قراءة الفلسفة من الكفر. ومال إليهم العامة . وخاض السيد غمار السياسة المصرية . ونبه المصريين إلى وجوب تنظيم حكومتهم فساعد هذا كله على تنكر ولاة الأمور له . والخشية منه . ولا سيما بغضه للإنكليز الذى كان يعلنه ولا يخفيه. وانتظم فى سلك الماسونية لينفسح له المجال أمام الأعمال السياسية . وكتب مقالات فى السياسة تولى غلادستون نفسه الرد عليها . ووافق ذلك تولية (توفيق باشا) للخديوية فلم يطق الصبر على السيد فأخرج من القطر المصرى فذهب إلى الهند وذلك سنة ١٢٩٦هـ . وكان سفره من

السويس فعرض عليه قنصل الإنكليز مبلغاً من المال نفقة سفر فأبى وقال كلمته المأثورة : « الأسد أينما ذهب لا يعدم فريسته ». فتكون مدة إقامته الثانية فى مصر ثمانى سنوات . ثم غادر الهند إلى لندن فباريس وهناك اتصل به الشيخ محمد عبده وأصدرا جريدة (العروة الوثقى) التى وصفنا من خبرها ما وصفنا فى صدر الكلام . وكان إصدارها بتكليف من جمعية (العروة الوثقى المصرية) . ثم أقفلت بسبب إقفال أبواب الهند ومصر والسودان فى وجهها . لكن السيد لم يترك الكلام فى السياسة فكتب فى الصحف الباريسية وجرت له أبحاث مع رينان فى العلم والإسلام . وطلبه (تشرشل) و (سالسبورى) إلى لندن ليسألاه رأيه فى مهدى السودان . فذهب إليهما . ثم رجع إلى باريس . فطلبه شاه إيران (ناصر الدين) فخف إلى طهران فولاه الشاه وزارة الحربية فأحبه الإيرانيون ومالوا إلى تعاليمه . فخافه الشاه وتغير عليه . وأحس السيد فاستأذنه فى السفر انتجاعاً للصحة . فذهب إلى موسكو فبطرسبرج وكان له فى كل مكان ينزله مريدون مشتاقون إليه سماعون له عاملون على نشر آرائه . وزار معرض باريس سنة ١٨٨٩ م والتقى ثمة بالشاه ناصر الدين فلاطفه الشاه واطمأن جمال الدين إليه . وعاد معه إلى طهران وعادت إليه مكانته الأولى فيها . وجعل يبث الروح الدستورية بين أبنائها .

فعاد الشاه إلى تنكره له فأحس السيد بذلك واستأذنه فى زيارة (شاه عبد العظيم) وهى بلدة على بعد عشرين كيلو متراً من طهران وتبعه محبوه . واتخذ من قداسة المكان طريقاً إلى الجهر برأيه فى إصلاح الحكومة فلم يطق الشاه صبراً عليه فأرسل قوة عسكرية إليه فاحتملوه من فراش مرضه إلى حدود تركيا . فنزل البصرة واتفق أن كان فى البصرة يومئذ قاضيها عبد الحميد أفندى الرافعى الطرابلسى فروى بعض الإخوان عن لسان القاضى طرائف من أخبار السيد الأفغانى وهو فى البصرة أودعتها مقالى المنشور فى (البينات بعنوان جمال الدين أفغانى أم إيرانى) . وستأتى مناسبة لذكر نزول السيد البصرة واقتباس شىء من أخباره فيها . واستأذن السيد الأفغانى وهو فى البصرة حكومة الآستانة فى أن يذهب إلى السياحة فى داخلية جزيرة العرب فلم يؤذن له ثم أذنوا له فى الذهاب إلى لندن . ثم لم تلبث أن جاءت برقية بمنعه . وكان غادر البصرة بعد أن بذل وسعه فى تأريث نار الفتن بين الإيرانيين والشاه : من ذلك أنه حصل على نسخة من كتاب (على بابا) تأليف (جيمس موريو) فترجمها إلى الفارسية وجعل يبعث بنسخ منها إلى إيران ليقرأها الطلاب والنشء الجديد فيعرفوا كيف يستهزئ الأجانب بهم وينهبوا إلى الإصلاح .

وبعد أن غادر البصرة أقام فى لندن يتحدث إلى الإنكليز فى

مجتمعاتهم وأنديتهم. وكان يكتب المقالات الرنانة فى جريدة (ضياء الخافقين) بتوقيع السيد، وكان معظم اهتمامه فى كتاباته وأحاديثه فى الطعن على الشاه. وما آلت إليه حالة إيران فى عهده. فكان الشاه يكتب إلى السلطان عبد الحميد شاكياً له منه فوسط السلطان سفيره رستم باشا فى أن يقدم جمال الدين إلى الآستانة فلم يفلح رستم وأفلح الشيخ (أبو الهدى) فكتب إلى السيد بفنون من معسول الكلام فانخدع وشخص إلى الآستانة. ونزل فى (المسافرخانة) حيث كنت أوافيه مع جماعة من محبيه ومريديه. فهو إذن نزل الآستانة مرتين: المرة الأولى (سنة١٢٨٧ ﻫ ١٨٧٠ م) والمرة الثانية (سنة ١٣١٠ ﻫ ١٨٩٢ م) وبين المرتين ثلاث وعشرون سنة وستأتى زيادة تفصيل لأخبار السيد جمال الدين مع شاه إيران. وكان السيد مع (أبى الهدى) فى أول الأمر على وفاق. وجميل صحبة. وقد شهدتهما يوم يريدان الركوب فى عربة من دار أبى الهدى إلى المابين، فجعل كل منهما يقسم على رفيقه أن يركب فى الجهة اليمنى. ورفيقه يأبى. وقد ارتفعت أصواتهما بالأيمان على مرأى ممن حولهما. والأفغانى لم يكن يكترث لما يسمونه رسميات أو تشريفات غير أنه قد تكلف ذلك لأول نزوله الآستانة مراعاة لمقام صديقه الجديد (الشيخ أبى الهدى).

على أن ذلك لم يدم طويلا ، فإن كلا من الصديقين رجع إلى شنشنته وما ركز فى طبعه (إن التخلق يأبى دونه الخلق) ولذلك عادا فاختلفا بعد التفاهم . وتناكرا بعد التراحم . حتى أدى الحال بينهما أخيراً إلى اللمز والتعيير ، وكان أبو الهدى ينبز الأفغانى بالمازندرانى . وسمعت شيخنا الشيخ حسين الطرابلسى مؤلف الرسالة الحميدية يقول : إنه كان فى مجلس الشيخ أبى الهدى بالآستانة فحدث أحد الجلساء عن بعض علماء أوربا المستشرقين وقال : إن هذا المستشرق عمد إلى القرآن فرتب آياته بحسب معانيها وموضوعاتها فصولا فصولا فجمع فى فصل الآيات المتعلقة باليهود مثلا . وفى فصل آخر الآيات المتعلقة بالنصارى . وفى فصل آيات الطلاق . آيات الإرث . آيات الجنة . آيات النار . وهكذا . وروى المحدث هذا الخبر عن لسان السيد الأفغانى . قال وقد استحسن الأفغانى هذا الصنيع من المستشرق ولم ينكره . قال شيخنا الجسر فغضب أبو الهدى الصيادى عند سماع هذا الحديث عن جمال الدين وقال : إن العمل كفر والرضى به كفر . وجعل يشنع على جمال الدين . وسمعت أخيراً من السيد بديع بك المؤيد العظم ، وهو من أعرف الناس بأخبار الآستانة ورجالها فى العهد الحميدى ، قال : إن السلطان أنعم على السيد الأفغانى برتبة (قاضى عسكر) وأحضرت إليه شاراتها :

جبة فضفاض ملونة . وزينة للصدر والرأس مذهبة . ولما أخبر السيد بالإرادة السلطانية وطلب منه أن يقوم إلى حيث يلبس هذه التشريفة أبى وقال للرسول : قل لمولاى السلطان إن جمال الدين يرى أن رتبة العلم أعلى الرتب . وبعضهم يروى أن جمال أجاب بقوله : « إنه لا يريد أن يكون كالبغل المزركش » معرضاً بالسيد الصيادى الذى بلغ من رتب الدولة أعلاها ونال من زينة المراتب أثمنها وأغلاها .

* * *

وبعد وصولى إلى الآستانة بأيام وقبل أن أتصل بالسيد الأفغانى كانت تقع عينى أحياناً على رجل غريب الزىّ جذاب الملامح ممتلئ الجسم إلى قصر . أسمر اللون أسود الشعر . خفيف العارضين له لمة مسترسلة إلى شحمة الأذنين . يلبس لبوس علماء الأتراك ، جبة سوداء غير سابغة الطول . وعمامة بيضاء مختلفة فى تكويرها عن عمائم علماء الآستانة علمت أخيراً أنه هو السيد الأفغانى . وجعلت أتهيأ لزيارته . والاهتمام بأمر مقابلته وقد لحظ منى هذا الاهتمام بعض معارفى من التجار السوريين فقال :

« حضرت بعض المجالس فى الآستانة فسمعتهم يتحدثون عن هذا الذى تذكره وتعلى من شأنه . ومما ذكروه عنه أنه

يكثر من التردد على متنزه (الكاغد خانه) وهناك طائفة من الغجر * منتبذين فى ناحية منه يعيشون تحت أكواخهم المعهودة وأن الشيخ جمال الدين ينتاب هؤلاء الغجر ويلم بهم كلما زار ذلك المتنزه يكلمهم ويصغى إلى حديثهم » . فقلت له : إن السيد جمال الدين على ما يظهر يجد فى حديث هؤلاء القوم ما يسليه . ويسرى عنه هموم حياة النصب التى يحياها . فلم يعجب التاجر قولى وبقى مصرًّا على استنكار ما كان يفعله جمال الدين من غشيان هذه الأكواخ ومحادثة أهلها وأن هذا يضع منه ، ويحط من قدره . فقلت له : إن طبع السيد الأفغانى مشتق من طباع الفلاسفة ، فهو يرفه عن نفسه بمحادثة الغجر وربما تعود ذلك ليتوسل إلى إكرامهم والرضح لهم بالبخشيش وجعلهم يشعرون بشىء من راحة الحياة ولون من ألوانها الضاحكة وأنهم غير منسيين من إخوانهم البشر ذوى الرغد والعز والسلطان . والسيد فى بلاده الأفغان على مقربة من بلاد الهند وقد ألم بها المرة بعد المرة ورأى بعينيه نظام الطبقات السائد فيها وشناعته ومبلغ حطه من كرامة الجنس البشرى ، فهو بتأنيسه لأولئك المحدودين المنكودى الحظ كأنه يعلن شريعة الأخوة الإنسانية التى علم بها الإسلام وجهر بها النبى عليه الصلاة والسلام فى

* ويسمون أيضاً النور والمطاربة ويسميهم الأتراك جنكانه

مثل قوله : (يا الناس إن الرب واحد والأب واحد) .

وأن العقلية الفلسفية ليست كالعقلية التجارية : فإن نفس الفيلسوف يلذها أن تغوص فى أعمق طباع البشر وأخفى أسرار حياتهم على اختلاف طبقاتهم . وهؤلاء الغجر طبقة من الناس تحيا حياة خاصة وتمتاز بعقلية غريبة . ويروى عنهم من الأخبار ونوادر القصص ما يسلى السيد جمال الدين . ويشغله قليلا عن الحد الذى يعانيه فى مقاومة الملوك المستبدين . ومجادلة البلداء من العلماء والعظماء .

والأفغانى فى تحدثه إلى الغجر وتنزله إلى مجاملتهم وتأنيسهم يشبه ما حكى لنا عنه وهو فى القاهرة : أخبره مريدوه الحريصون على تفكيهه وتسليته ، أن فتاة أوربية لها (مشرب) فى حىّ الأزبكية تسقى فيه البيرة بيدها وأنها غاية فى الجمال والذكاء والأدب . فقال لهم جمال الدين : هيوا بنا إليها .

وقد عرف من أمر السيد أنه ما كان يتعاطى محرماً . وراوى الخبر لم يقل إنه شرب البيرة عند الفتاة . على أن بعضهم رخص بالبيرة لأنها تتخذ من غير عصير العنب المسمى خمراً والقليل منها لا يسكر (كما قالوا) .

دخل السيد الأفغانى ورفاقه على الفتاة وإذا هى كما وصفوها

جمالا وذكاء فأشار إليها بعض رفاق السيد منوها بمقامه . فأقبلت عليه بالتأنيس وبعذب الكلام . وأقبل عليها هو بالبحث والتفتيش عن خبايا نفسها . وأسرار حياتها . ثم التفت إلى رفاقه قائلا : أتريدون أن أبكيها لكم ؟ فقالوا وقد عجبوا لقوله : نعم . فالتفت إليها وقال ما معناه : إنى رأيت من جمالك وذكائك وحسن أدبك ما آسف عليه وعليك وعلى ضياع حياتك تمضى سبهللا ، كان يمكنك بهذه الأوصاف التى أنت عليها أن تبلغى أقصى درجات السعادة والمجد والشهرة ، وكثير من وصيفات القصور لسن على بعض ما أنت عليه من جمال وعقل . وذكاء ونبل . آسف جداً على شبابك وجمالك أن يبتذلا فى هذه الحانة التى يؤمها أحياناً أشرار الناس وأوباشهم فترين وتسمعين منهم ما يجرح كرامتك . ويؤذى أدبك ، وسمو تربيتك . وأطال السيد فى هذا ونحوه والتفت الرفاق إلى الفتاة فإذا هى مطرقة خاشعة تنحدر دموعها على وجنتيها . وقد أرعش البكاء شفتيها . عندها قال رفاق السيد للسيد : أجئنا بك إلى هنا يا أستاذنا لنسر ونطرب ، أو نبكى ونحزن ؟ فقال لهم أتريدون أن أبدل بكاءها ضحكا . وحزنها هناء ؟ قالوا افعل . فالتفت إليها وكلمها كلاماً فيه فكاهة ودعابة فعادت إلى المرح والانبساط .

* * *

قصدت إلى زيارة السيد الأفغانى فى (المسافرخانة) حيث كان ينزل المسافرون من ضيوف الخلافة . فاستأذنت عليه . وكان لديه طائفة من أهل الفضل والأدب . أذكر منهم الفاضلين السلاوى وإبرهيم أدهم زعيمى أدباء العرب فى عاصمة الترك فى العهد الحميدى . ومن أشهر المترددين على السيد يومئذ الشيخ عبد الرشيد إبرهيم الرحالة المسلم الروسى . وكان السيد يخصه برعايته وعطفه . ولم أكد آخذ مكانى من المجلس حتى سألنى السيد عن نفسى . فانتسبت إليه بذكر بلدى وأسرتى وأنى أخذت العلم عن شيخى الشيخ حسين الجسر . فأثنى السيد على الشيخ وقال إنه قرأ مؤلفه (الرسالة الحميدية) منذ كان السيد فى البصرة . والرسالة الحميدية هذه أثبت فيها شيخنا الجسر أحقية الدين الإسلامى وحقيقته . رداً على طوائف المنكرين له . وقد أطال النفس رحمه الله فى الرد على الدهريين والداروينيين خاصة . وقد سمعت من لفظ شيخى المشار إليه رحمه الله أنه لما كان فى الآستانة اجتمع بالسيد جمال الدين فى المابين فى دائرة الحاج على بك كبير القرناء . ولم يكونا التقيا قبل ذلك . فأثنى الأفغانى على الشيخ وعلى رسالته الحميدية التى قرأها مذ كان فى البصرة لكنه انتقد (جريدة طرابلس) وكانت أنشئت

حديثاً . (سنة ١٣١٠ هـ) . وكان صاحبها ومديرها المسئول وجيهاً عصامياً من وجهاء طرابلس ، وكانت جريدته أخبارية يهم صاحبها قبل كل شيء رواجها واستثمارها ورضى الحكام عنها . وقد حفظ صفحتها الأولى لشيخنا الجسر الذى كان السبب فى سماح الحكومة بإصدارها فى طرابلس . فكان الشيخ يكتب الافتتاحيات المسهبة فى الدين والأخلاق والاجتماع بتوقيع منتحل، فقال السيد الأفغانى لشيخنا الجسر رحمهما الله: ما هذا يا أستاذ ؟ إن جريدتكم (طرابلس) جمعت بين الكفر والإيمان: أقرأ فى صفحتها الأولى الحض على الفضيلة والخير ومكارم الأخلاق وفى باقى الصفحات ضروباً من التملق والنفاق (وهذا الصنيع من أبعد ما يكون عن طبع الأفغانى). قال شيخنا الجسر : فاعتذرت عن مدير الجريدة بطبيعة الوقت . وأن الجريدة لا تعيش فى بلاد مثل بلادنا ما لم تتمش إدارتها على هذه الطريقة من اللين والرفق ومجاملة الحكام . قال فلم يقبل الأفغانى هذا العذر .

قال شيخنا : ورجوت الأفغانى أن يخفض صوته فى حديثه معى كيلا يشعر رجال المابين أننى صحافى أكتب فى صحف الأخبار . فامتعض الأفغانى وقال: ولماذا يا أستاذ تحاذر هذا وتأبى الانتساب إلى الصحافة ؟ الصحافة عمل شريف وأنا صحافى وكان لى فى باريس جريدة أكتب فيها . وقد أراد بها (العروة

الوثقى) فجعل شيخنا الجسر يحتج عليه باختلاف البيئات وتباين أطوار البلاد. وأن مثله (أى مثل شيخنا الجسر) فى انتسابه إلى علم الدين يزرى به فى نظر الناس الاشتغال بالصحافة. فلم يقبل الأفغانى عذره هذا بالطبع.

أقول : وقد أيد رأى شيخنا الجسر فى الصحافة ومنزلتها يومئذ ما كان بعد ذلك من الشيخ (أبى خطوة) القاضى الشرعى المصرى الكبير الذى فصل فى (مسألة الزوجية) وحكم بأن الصحافى ليس كفؤاً للشريفات. فقامت قيامة رجال الصحافة المصرية يومئذ وأوسعوا القاضى لوماً، وحكمه استنكاراً. ومهما يكن فقد كان صنيعه مؤيداً للجسر على الأفغانى تأييداً لا يقول به الكثيرون من الأفاضل.

وقد كان شيخى الجسر مصلحاً دينيًّا دقيق النظر. لكنه مع هذا بقى طول حياته محافظاً متحفظاً شديد الحذر. وأهم ما استمددناه من طريقته فى الإصلاح يمكن تلخيصه مما وقع لى فى زمن الحداثة وطلب العلم :

ذلك أننى بعد أن تلقيت من دراستى على والدى الاستسلام إلى كل ما جاء فى الكتب الموروثة عن أسلافنا الماضين، والتصديق بنصوصها من دون تردد ولا ارتياب، عدت فاقتبست من شيخنا الجسر تعاليم فيها شىء من حرية النقد. وانطلاق الفكر : وقد

تعلمنا أن النصوص الدينية الموروثة فيها الغث وفيها السمين . وأن بينها ما هو غير صحيح ولا معقول ولا منطبق على القرآن ولا السنة النبوية الصحيحة ، فيجب الانتباه إليه . والتنبيه عليه . والتحذير منه وتمييز غثه من سمينه . وحقه من باطله . ولتمييز الحق من الباطل فى نقل الأخبار طريقتان : (١) التدقيق فى سند الخبر وروايته . (٢) تدقيق النظر فى إمكانية الخبر وعدم إمكانيته وهذا ما قرره الفيلسوف العربى ابن خلدون فى الكتاب الأول من مقدمته الذى بحث فيه عن طبيعة العمران فقد قال ثَمَّ ما نصه : « وتمحيص الخبر إنما هو بمعرفة طبائع العمران . وهو أحسن الوجوه وأوثقها فى تمحيص الأخبار . وتمييز صدقها من كذبها . وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة . ولا يرجع إلى تعديل الرواة حتى يعلم أن ذلك الخبر فى نفسه ممكن أو ممتنع . وأما إذا كان الخبر مستحيلا فلا فائدة للنظر فى تعديل الرواة وتجريحهم . » اهـ

فكأن شيخنا الجسر رحمه الله فى دروسه إنما يشرح لنا ما قاله ابن خلدون فى نظريته . وقد علمنا بأن ندقق الخبر . ونعمق النظر : فليس كل نص يقبل . سواء أعقل أم لم يعقل . بل نزن كل ذلك بميزان القرآن والسنة وطبائع العمران (الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان) ، بينما كان والدى رحمه الله بسبب تربيته

الأزهرية لا يسمح لى فى أن أنحو هذا النحو فى النظر والتدقيق وإعمال الفكر فى التفريق بين النصوص الدينية .

غير أنى لما اتصلت بالسيد الأفغانى وأنعمت النظر فى دراسة تعاليمه انتقلت فى حياتى الفكرية إلى الدور الثالث أو الطور الثالث وهو أن نفهم النص الدينى فهماً صحيحاً : مراعى فيه قوانين اللغة وقواعد بلاغتها . ونستوثق من مطابقة النص للكتاب والسنة . ثم نجرأ على التصريح بما فهمناه من النص سواء أوافق رأى غيرنا أم لا . وقد اقتبسنا هذه الطريقة فى الفهم من أقوال السيد الأفغانى وتعاليمه المروية والمبثوثة فى (العروة الوثقى) أولا ثم فى سائر ما علق بكفنا من كتاباته وكتابات تلميذه الشيخ محمد عبده ثانياً . فالأساس الذى بنى عليه الإصلاح الدينى إذن هو تمييز نصوص الدين والحرص على فهمها فهماً حراً . مستنداً إلى قواعد اللغة العربية وقوانين بلاغتها . ثم الجرأة فى الدعوة إلى الصحيح المعقول من تلك النصوص والتعاليم واطراح الباطل الدخيل عليها . والجهر بذلك كله من دون جمجمة فى قول . أو تقية من ذى صول .

قال السيد الأفغانى لجلسائه وقد سئل عن رحلاته إلى لندن إنه ذهب إليها ثلاث مرات كان يقصد فى إحداها باريس فألم بلندن إلمامة خفيفة لم تتجاوز خمسة عشر يوماً . قال وقد

اتفق لى فيها أن إنكلترا أرادت أن أكون فى الوفد الذى عزمت على إيفاده إلى الثائر فى السودان (محمد أحمد المتمهدى) بقصد مذاكرته فى أمر الصلح ؛ وكانت ثورته الشغل الشاغل لإنكلترا فى ذلك الحين . قال السيد : وقد سررت فى نفسى من هذه الرحلة إلى السودان ، لما أنه انفتح أمام عينى الطريق إلى خدمة المسألة المصرية . ومعالجة أسباب إنقاذها من سلطة الإنكليز — لو تم ذلك لكنه لم يتم بسبب موت المتمهدى .

أما المرة الثالثة التى نزل فيها السيد الأفغانى (لندن) فقد كان الغرض منها مقاومة ناصر الدين شاه . بعد ما كان من سوء معاملته للسيد وهو مريض فى (شاه عبد العظيم) وإبعاده إلى الحدود التركية كما أمر . وكان السيد إذا ذكر شاه إيران طعن عليه طعناً قبيحاً . ولا يألو فى تعديد مثالبه والتهكم به . والزراية عليه . وأخذ فى لندن يسعى فى إلقاء النفرة بينه وبين إنكلترا . قال : « لأن الشاه طغا وتجبر وبالغ فى الكبر والعتو وسب الأشراف والأولياء وسلم وزارته لوزير شاب جاهل عات ظالم فخرب بلاد إيران . ولم يجرئه على فعله هذا إلا استناده إلى إنكلترا . فإذا أعلنت إنكلترا أنها لا تؤيده فى أعماله المنكرة هذه سلمت إيران . وعاد إليها الأمن والأمان » .

فكان جل ما يرمى إليه السيد فى نزوله (لندن) هو أن

يحفظ قلب إنكلترا على الشاه ووزيره الشاب . وقد بلغ أمنيته هذه بواسطه نشر مقالاته فى الصحف والأحاديث عن الشاه فى المحافل حتى صغر الشاه فى نفوس الإنكليز . وحقر فى أعينهم . وهان قدره عليهم .

ولم يخف هذا على الشاه فكبر عليه وتعاظمه وأقلق راحته . فجعل يفكر فى طريق الخلاص من السيد وإخراجه من (لندن) فرأت حكومته أولا أن ترسل كتاباً إلى السيد بواسطة سفيرها تستعطفه وتقسم عليه بجده المصطفى (ص) أن يقلع عن مقاومة الشاه ويكف عن الطعن عليه والوقيعة فيه . وعرضت عليه أن يطلب فى مقابل ذلك ما يشاء ويتمنى فأجابهم السيد : «لا أتمنى إلا أن تزهق روح الشاه ويشق بطنه . ويوضع فى القبور» .

كل هذا سمعته من فم شيخنا الأفغانى الذى كان يرويه بطلاقة لسان وتوقد جنان .

وما كان أجوده بالأحاديث وقص الأخبار على جلسائه فقد كان لا يبخل عليهم بجواب . ولا يعييه خطاب .

هذا فيما يتعلق بالجد من الأمور . أما لحين المطايبة وإرسال النكت فهو الروض لا تهدأ عن التغريد أطياره . ولا تألو فى نشر الشذى أزهاره . وكنت أتخيل قبل اجتماعى بشيخنا الأفغانى

وكثرة ما وصفوه لنا بالفلسفة والحكمة أنني سأراه عابس الوجه مهيب السمت شديد الإطراق قليل الكلام . إذا سئل إجاب بالإيجاز . وأورد كلامه كما تورد الأحاجي والألغاز . شأن أولئك الذين يسمون أنفسهم فلاسفة أو متفلسفين ويغمضون فيما يقولون أو يكتبون . فلا يفهم ما يعنون ويقصدون .

أما فيلسوفنا (الأفغاني) فما كنا نراه إلا مشرق الوجه. منبسط الأسارير . جذاب لحظ المقلتين . تبرق عيناه وهو يحدث بما يسأل عنه . وتنفرج شفتاه عن ابتسامة لطيفة حين سماعه النوادر من جلسائه . ولهذا أحبه مريدوه . وكثر زواره . وشاعت فى الناس أخباره .

روى الأستاذ عباس محمود العقاد فى بعض كلامه على سعد باشا زغلول ، وقد بشره (أى بشر سعداً) يوماً أحد أصحاب الرؤى والأحلام بنجاح الوفد فى الانتخابات النيابية . فقال سعد : وماذا عليه ؟ إن أخفقنا معشر الوفد بين لم نر له وجهاً . وإن نجحنا جاءنا يطلب البشارة . ثم تابع سعد حديثه حاكياً حكاية السيد جمال الدين الأفغانى مذ كان مسافراً فى سفينة وقد خيف عليها الغرق فقال : أخبرنا الشيخ جمال الدين أنه لما رأى الصبية والنساء وضعاف القلوب فى السفينة يضطربون ويهلعون ذهب يؤكد لهم أشد التوكيد أن سفينتهم لن تغرق

فى تلك السفرة ويقسم لهم أنها لناجية بلامراء . قال الشيخ : وكان القوم يظنون فى القداسة مذ يروننى بالعمامة الخضراء فيحسبوننى من دراويش الهند الذ ين يكشفون الغيوب .ويطلعون على أسرار المستقبل.والمسألة بعد مسألة حسابية : إن غرقت السفينة لم أجد منهم من يكذبنى . وإن سلمت ظفرت بالقداسة من أقرب سبيل . وسمعته مرة يروى نكتة عن رجلين قال أحدهما لصاحبه يعظه وينصح له : يا أخى لماذا لا تصلى ؟ الصلاة فضلها كذا ومكانتها من العبادات كذا وكذا . صل أربعين يوماً فقط وانظر إذا كان يمكنك بعدها أن تترك الصلاة ؟ فأجابه صاحبه وأنت يا أخى اترك الصلاة أربعين يوماً ثم انظر إذا كان يمكنك بعدها أن تعود إليها . فضحك جلساء السيد لهذه النكتة الدالة على خبث هذا التارك للصلاة ومحاجته فيها بباطل القول وزور الكلام.

قال لنا السيد : مر بالهند سفير أرسلته حكومته الأمريكية إلى بلاد الصين ثم ما لبث وهو فى الهند أن اجتمع بالمسلمين وأكثر من مخالطتهم والتبرس بهم فمال قلبه إلى الإسلام فأسلم ؛ وحاول أن ينقل الإسلام إلى بلاده وينشره بين الأمريكيين وأخبروه بمكانة السيد من العرفان والمقدرة ، وأنه يقيم فى الاستانة ؛ فكتب السفير كتاباً إلى البرنس (فاضل باشا المصرى) يخبره فيه بعزمه على نشر الإسلام فى أمريكا . وفى طيه كتاب آخر منه إلى

السيد جمال الدين يطلب منه فيه أن يتهيأ للرحيل معه إلى أمريكا. وشرح له قصده من هذه الرحلة وكتب كتاباً ثالثا إلى الجمعية الإسلامية فى ليفر بول يخبرهم بغرضه أيضاً فأرسل رئيس هذه الجمعية (عبد الله وليم) كتاباً إلى (فاضل باشا) وفى طيه كتاب إلى السيد يحضه فيه على تلبية السفير وأن يشخص السيد أولا إليهم فى (ليفربول) فيؤلفوا بعثة دينية إسلامية يتولى السيد رئاستها ويصحبوه برجال من عندهم يثقون بكفايتهم ومقدرتهم . فلم يسع (فاضل باشا) إلا أن يعرض هذه الرسائل على السلطان عبد الحميد فلم يسمح السلطان بذلك ضناً بتلك الجوهرة أن تخرج من صدفتها الجديدة . ولا أذكر ما إذا كان السيد هو الذى نطق بتلك العبارة (أى ضناً بتلك الجوهرة إلخ . . ..) أو هى من مقولى والجوهرة هو جمال الدين . وصدفته الجديدة هى الاستانة . التى دعاه السلطان إليها . وأنزله على الرحب فيها ليريح زميله شاه إيران من حملاته كما وصفنا آنفاً. وكيف يسمح السلطان للسيد بالسفر إلى أمريكا فينشر ثم من أخبار الاستانة وعجر المابين وبجره ما يزعج السلطان. ويقلق راحته . ومن رأى العبرة فى غيره فليعتبر . وقد جعل عبد الله نديم المصرى دعوة السلطان للسيد الأفغانى إلى الاستانة منقبة من مناقب السلطان فقال : وساح « أى السيد » فى الأقطار . وخالط الأمم. وداخل

السياسيين . ودرس التاريخ الحاضر والماضى . وامتد باعه فى العقليات . فأصبح أمة واحدة بين ذوى الفضل . وهذا الذى دعا مولانا الخليفة الأعظم لاستدعائه إلى عاصمته . وإدخاله فى لفيف العلماء الخاص بمجلسه العالى . فقد أهلته المعارف والتجارب والمخالطة العامة لمسامرة الملوك والنظر فى السياسات وهذا كله من فضل السيد الأعظم .ا هـ .

وسئل السيد عن رأيه فى (عبد الله وليم) الإنكليزى الذى كان أسلم فى ذلك العهد وألف جمعيته المذكورة وعما إذا كان اجتمع به ؟ فأثنى السيد عليه . وقال إنه على هدى من أمره .

قال ولما كنت فى لندن أرسل (عبد الله وليم) إلى كتاباً يدعونى إليه فى (ليفربول) ، وحاولت إجابة طلبه غير أن دعوة السلطان إياى إلى الاستانة حالت دون ذهابى إلى ليفربول .

قال السيد : واستأذنت يوماً على السلطان فعينوا لى يوم الخميس للمقابلة . وجئت يوم الخميس فقالوا لى تعال يوم الإثنين . وتكرر هذا منهم . فقلت للحاج على بك (رئيس القرناء): إننى لا أجىء إليكم من بعد اليوم . ثم اجتمع بالسلطان قال فأثنيت على جلالته : إذ كان محباً للدين . عاملا على نشره . قال : وطالت المذاكرة بشان إيفادى إلى أمريكا حسب طلب السفير الأمريكى الآنف الذكر. وكاد يتم الأمر. ثم عدلوا

عنه ورأوا أن الأصلح أن يذهب السيد إلى أوروبا فيقوم ثم ببعض الأغراض السياسية المتعلقة بمصالح الدولة العلية . ثم ضربوا صفحاً عن كل ذلك وقال له السلطان : أريد أن أجعل وطنك الاستانة إذ لم يكن لك وطن .

والحق أن السلطان كان يخشى شرَّة السيد ويحاذر صولته.كما مر آنفاً . فهو يفضل أن يبقى محبوساً فى القفص .

أما أن السلطان يريد أن يجعل الاستانة وطناً للسيد فهو قول لا محصل له فى نظر السيد لأن الإسلام بطبيعته يعلم بأنبلاد الإسلام مهما اتسعت رقعتها . وترامت أطرافها . تكون كل قرية أو بقعة منها وطناً للمسلم الذى ينزلها . فأهلها أخوته . وحكومتها حكومته . ويعنيه من أمرها ما يعنى سكانها أنفسهم فله أن يشتغل بسياستها . وينقد حكامها . ويرفع صوته بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيها . وهذا ما كان من جمال الدين طول حياته التى عاشها : فقد كان أفغانياًّ فى الأفغان، إيرانياًّ فى إيران هندياًّ فى الهند حجازياًّ مصرياًّ فى الحجاز ومصر تركياًّ فى بلاد الترك . وكان إذا سئل السيد عن وطنه أجاب : ليس لى وطن على أنه لا وطن اليوم للمسلمين ، يشير بهذا إلى أنهم غرباء فى أوطانهم مادام الأجانب مسيطرون عليهم . لا جرم أن شيخنا الأفغانى كان فى حياته وجولاته فى بلاد الإسلام

رمزاً قائماً بنفسه إلى وحدة الممالك الإسلامية . وأن سكانها شعب واحد . يعيشون فى وطن واحد . ولذا كان أكبر غرض يسعى إليه هو إقامة حكومة إسلامية قوية ينضوى إلى رايتها جميع شعوب الإسلام . هذا كان همه الأكبر . وهدفه الأعظم . لكنه وأأسفاه لم يجد من ينقطع إليه فى خدمة غرضه من المريدين به سوى الشيخ محمد عبده . على أن هذا شعر أخيراً بصعوبة الأمر وأوجس خيفة من الخيبة فيه قبل حلول وقته المقدر له ، فكان يشير على جمال الدين وهما فى باريس بترك الصحافة وهجر السياسة إلى الانقطاع للعلم والدرس والتعليم فى مدارس يبنونها . ومعاهد يؤسسونها .فكان يقول له جمال الدين :اسكت أنت مثبط . وكأن المتنبى نظر إلى السيد الأفغانى بعين الغضب مذ قال :

أهم بشىء والليـــالى كأنها
تطاردنى عن كونه وأطارد

بعيـــداً عن الأوطان فى كل بلدة
إذا عظم المطلوب قل المساعد

ويا ليت الأفغانى كان اليوم حياً فيرى ما وفق إليه زعماء العرب أخيراً من تكوين هذه (الجامعة العربية) فإن فيها بعض ما كان يدعو السيد إليه ويحرص عليه . من أمر الوحدة .

لا جرم أن فى وحدة العرب وقوتهم قوة للإسلام فى جميع بلاد الإسلام . ولاسيما إذا عرفت رجال الجامعة كيف يخلصون فى العمل . ويتفقون فى الاتجاه . ويطبقون أعمالهم وقرارات جامعتهم على نواميس مدنية هذا العصر ويفرغون مساعيهم فى قوالب عقلية أهله . ودهاء ساسته . وهم فاعلون إن شاء الله .

وعرض فى مجلس السيد ذكر لميرزا باقر . فسئل السيد عنه . فحكى لنا ملخص ما عرفه من أمره . ومبتدإ خبره . فقال :

إن هذا الرجل تعلم فى مدارس الهند الإنكليزية وهو صغير فتنصر . وسمى ميرزا يوحنا . ثم صار ترجماناً لمشير الجيش الإنكليزى . واجتمع به السيد جمال الدين فى فرضة بوشير فى إيران عندما كانت العساكر الإنكليزية تحتل تلك الأنحاء احتلالا عسكرياً . وكان ميرزا شاعراً فى اللغة الإنكليزية والفارسية . عارفاً بالعربية . وكان يقول الأشعار يهجو بها صاحب الرسالة . وكان مسلمو تلك الجهات لا يقدرون على معارضته خشية شره وسطوة الإنكليز . ثم جعل يتردد على السيد من وقت إلى آخر . فكان السيد يعارضه فى سوء ما يقول . وكان عمر السيد يومئذ عشرين سنة . وكان ذلك أثناء عودته من الحجاز إلى وطنه الأفغان . فكان ميرزا يرد على السيد كلامه مستهيناً به . فامتعض السيد يوماً وقال له : أنهاك أن تأتى دارى بعد اليوم . فلم

يكترث ميرزا لقوله . وثابر على المجىء . وبقى على عادته من التفوه بما لا يليق . فهيأ السيد زمرة من شجعان الأفغان وجهزهم بالهراوى الضخمة . حتى إذا صدر منه ما ضاق صدر السيد عنه قام إليه ولطمه على وجهه بملء يده . ثم أشار إلى رجاله فهبوا إليه وبطحوه وانهالوا عليه بالهراوى ضرباً وجيعاً حتى سال الدم من فمه ومنخريه واستغاث بجدى السيد (النبى والحسين) فتركه السيد وذهب حبواً إلى الإنكليز . فلامه هؤلاء وقالوا له : أنت المخطىء فى مجادلتك قوماً خرجت من دينهم . وكان السيد أمر رجاله الأفغانيين أنهم إذا رأوا ميرزا فى حيهم يقتلونه . فرأوه يوماً مطلا برأسه من دار بعض القساوسة فعرفوه وأراغوا باب الدار وراموا فتحه فامتنع عليهم. فعزموا على حرق الدار . واحضروا النار ، ولولا أن القسيس نزل إليهم من الدار مقسما بالإنجيل على أن ميرزا لا يأتيهم بعد الآن لأحرقوه . ثم ضرب الدهر ضرباته وإذا السيد جمال الدين فى باريس فجعل يسأل عن الميرزا حنا ولا أحد يخبره عنه . ففى بعض الأيام جاءه كتاب ففضه . وإذا هو بتوقيع ميرزا باقر . وقد افتتح كتابه بالصلاة والسلام على النبى حنيفاً مسلماً . ثم اجتمعا وتصافيا . وكان السيد يرسله مع الشيخ محمد عبده إلى باريس ليترجم بينه وبين رجال السياسة . فأرسله مرة معه لمذاكرة السياسيين بشأن (مالية مصر)

فجعل ميرزا فى أثناء الترجمة يتعرض للمسائل الإسلامية وبيان مزايا الإسلام والدعوة إليه . وكان هذا دأبه . فكان الشيخ عبده يقول له مبتسما : خل الدعوة لوقت آخر . ومكان آخر . نحن اليوم مشتغلون بمسائل مالية مصر وغيرها من الشئون لا فى مسائل الدين والدعوة إليه . وميرزا لا يصغى إلى نصيحته . ولا يرجع عن اللهج بدعوته . وكان يطبع نشرات يدعو بها إلى الإسلام ويقف على أبواب الكنائس ويدسها فى أيدى الداخلين والخارجين من أغنياء ومعدمين . وقد نظم بعض الإيرانيين قصيدة باللغة الفارسية مدح بها فيكتوريا ملكة الإنكليز وكلفوا ميرزا باقر ترجمتها إلى الإنكليزية فترجمها شعراً وعرضوا عليه مكافأة عليها مبلغ خمسمائة جنيه فأعرض مستنكفاً . وقال لا أريد مكافأة عليها إلا الجلاء عن مصر . الجلاء عن مصر . وكان رحمه الله فقيراً جداً لا يملك قوت يومه .

هذا ما سمعناه من فم جمال الدين عن ميرزا باقر رحمه الله وأنه ختم حياته الجديدة بنشر مزايا الإسلام والدفاع عنه والدعوة إليه والكتابة فى مناقبه والمقارنة بينه وبين الأديان الأخرى . على نحو ما كان يفعل كل من صاحبيه السيد الأفغانى والشيخ عبده . وما أشد اغتباطنا فى أن يقوم فينا عدة رجال كجمال الدين لا جمال الدين واحد . وكان الشيخ محمد عبده رحمه الله يأسف

ويحوقل مذ يسمعهم يقولون له : إنه لا يوجد فى المسلمين غيره . ويقول لهم : إن قولكم هذا يؤلمنى جداً . وكم أتمنى أن يكون فى المسلمين كثيرون أفضل منى وأقدر على العمل فى خدمتهم . وتوفير مصلحتهم . والذود عن حقوقهم .

وما قاله الشيخ عبده يذكّر بما كان من الفخر الرازى : فقد كان يقوم على منبر الرى خطيبا فيطرق طويلا ثم يرفع رأسه ويضرب بيده على لحيته وينشد :

خلت الديار فسدتُ غير مسود
ومن البلاء تفردى بالسؤدد

* * *

وسمعت السيد الأفغانى يقول فى مجلس له : إن أهل أوربا مستعدون لقبول الإسلام إذا أحسنت الدعوة إليه . فقد قارنوا بين الدين الإسلامى وبين غيره فوجدوا البون شاسعاً من حيث يسر العقائد وقرب تناولها . وأقرب من أهل أوروبا إلى قبول الإسلام أهل أمريكا . وإنما كانوا أقرب من الأوربيين لأنه لايوجد بينهم وبين الأمم الإسلامية عداوات موروثة ولا أضغان مدفونة مثلما هو الحال بين المسلمين والأوربيين .

قال السيد : والقرآن من أكبر الوسائل فى لفت نظر الإفرنج إلى حسن الإسلام فهو يدعوهم بلسان حاله إليه . لكنهم

يرون حالة المسلمين السوأى من خلال القرآن فيقعدون عن اتباعه والإيمان به .

قال : فإذا أردنا اليوم أن نحمل غيرنا على الدخول فى ديننا وجب علينا قبل كل شىء أن نقيم لهم البرهان على أننا لسنا متمسكين بخصال الإسلام . فلم نكن مسلمين ... كاملين .

وأفاض السيد فى مزايا القرآن وتعاليمه السامية : من ذلك أنه (أى القرآن) أول من دلنا على الوصول إلى الحقائق بالطريقة الفلسفية وهى (لمه) و (لماذا) إذ أن معظم آيات القرآن واردة فى معرض لم كان الأمر كذا ؟ ولماذا كان الأمر كذا ؟ وتكليف المخاطبين أن يعطوا الجواب المعقول على هذا السؤال وليست الفلسفة سوى ذلك .

قال : ومن مزايا القرآن أن العرب قبل إنزال القرآن عليهم كانوا فى حالة همجية لا توصف . فلم يمض عليهم قرن ونصف قرن حتى ملكوا عالم زمانهم . وفاقوا أمم الأرض سياسة وعلما وفلسفة وصناعة وتجارة . وكل هذا لعمرى لم ينتج إلا عن هدى القرآن وإرشاد القرآن : فالقرآن وحده الذى كان كافياً فى اجتذاب الأمم القديمة وهدايتها جدير أن يكون كافياً اليوم أيضاً فى اجتذاب الأمم الحديثة وهدايتها .

ولما انتهى الحديث بالسيد إلى هنا تنفس وقال : لولانا . لولانا .

القصور منا والتبعة علينا . انصرفنا عن الأخذ بروح القرآن والعمل بمعانيه ومضامينه إلى الاشتغال بألفاظه وإعرابه . والوقوف عند بابه . دون التخطى إلى محرابه . ولا بد هنا من إرسال نظرة عميقة فى قول شيخنا الأفغانى : « القرآن وحده » فإن فى قوله هذا إشارة إلى أن المسلمين فى الصدر الأول كفاهم القرآن وحده فى هداية البشر . أما اليوم فلماذا لم يكفهم القرآن وحده هداية البشر وهداية أنفسهم ؟ أليس هذا عجيباً من مواضع العجب ، ؟

السيد الأفغانى ينبهنا إلى أن القرآن لم يعد وحده فى قلوبنا ولا على أكفنا . ليسهل علينا العمل بتعاليمه . وليتيسر لنا عرضه على الأمم مبشرين ومنذرين . وقد كانت الدعوة إلى القرآن والتبشير به من أكبر ما يطمح إليه الأفغانى فى حياته . وكان يتلو على من يرى فيه المقدرة على الدعوة قوله تعالى :(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وإنما نحن اليوم حملنا مع القرآن أبحاثاً لفظية . ومناقشات حول أحكامه فرضية . واستنتاجات ليست فى مصلحة البشر . ولا هى من وسائل هدايتهم إلى الإيمان به . وأضفنا إليه من الشرح والتفسير مالا محصل له سوى الإغراب وإرضاء العامة . وأى حاجة لأن يزداد على قوله تعالى « وجىء يومئذ

بجهنم » هذه الجملة (تقاد – أى جهنم – بسبعين ألف زمام وكل زمام بيد سبعين ألف ملك) فى نظير ذلك من الزيادات المفسدات للدين المزعزعات لليقين .

وكما قلنا فيما سبق إن تمييز النصوص صحيحها من فاسدها والجرأة فى نصرة الصحيح والجهر بالدعوة إليه وحده – هو أول قاعدة من قواعد الإصلاح الدينى – نقول بمناسبة قول شيخنا الأفغانى « القرآن وحده » إن القاعدة الثانية للإصلاح وتيسير الدين للدعوة هى الاعتماد على القرآن وحده فى هذا الإصلاح والدعوة . ونحن نعلم من شيخنا الأفغانى أن ما آخى القرآن هو من القرآن . فالحديث المتواتر هو من درجة القرآن فى إثبات الحكم ، وكذلك إجماع المسلمين فى الصدر الأول على حكم من الأحكام العملية الماضية مع الزمن هو مما يتمشى مع القرآن . ولا سيما أعمال النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته هو تفسير للقرآن وعمل بالقرآن فهو إذن من القرآن . فالتواتر والإجماع وأعمال النبى المتوارثة إلى اليوم هى السنة الصحيحة التى تدخل فى مفهوم القرآن وحده والدعوة إلى القرآن وحده .

القرآن وحده سبب الهداية والعمدة فى الدعاية . أما ما تراكم عليه وتجمع حواليه من آراء الرجال واستنباطهم ونظرياتهم ، فينبغى ألا نعول عليها كوحى . وإنما نستأنس بها كرأى

ولا نحملها على أكفنا مع القرآن فى الدعوة إليه . وإرشاد الأمم إلى تعاليمه لصعوبة ذلك وتعسره وإضاعة الوقت فى عرضه . ألسنا مكلفين بالدعوة إلى الإسلام وحمل الأمم على قبوله ؟ وهل تمكن الدعوة من دون ترجمة تعاليم الإسلام إلى لغة الأقوام الذين ندعوهم ؟ هل فى طاقة سكان البرازيل مثلا إذا أردنا دعوتهم إلى الإسلام أن يفهموا كنه الإسلام من ترجمة أقوال علماء الإسلام وآرائهم المتشعبة فى تفسير القرآن والحديث . ألق نظرك على فهرست أحد الكتب الدينية الكبرى وتأمل فيها لترى ما الذى يمكن عرضه والدعوة اليه من أحكامها وتعاليمها وما لا يمكن تجد أن ما لا يمكن العمل به ولا الدعوة إليه ولا تطبيق مفاصله أصبح عبأ يجب الاستغناء عنه بما يمكن . والممكن هو ما فى القرآن وحده كما قال السيد الأفغانى . وكما أشار إليه فى آخر رسالته فى إبطال مذهب الدهريين منه قال : « لم تبق ريبة أن الدين هو السبب الفرد لسعادة الإنسان . فلو قام الدين على قواعد الأمر الألهى الحق ولم يخالطه شىء من أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه فلا ريب أنه يذهب بمعتقديه فى جواد الكمال الصورى والمعنوى » .

وكأن السيد يريد أن يقول فى تعاليم الإسلام إن الشجرة إذا ازداد نموها. واشتد التفافها . وكثرت أوراقها . وتشعبت أغصانها .

قل ثمرها وتضاءلت غلتها . فالبستانى الحاذق يعمد إليها فيبتر ويشذب . ويقلم ويهذب . ويبقى على بعض أصولها . فيتسرب الغذاء إلى هذه الأصول وحدها . وبذلك يعود إلى الشجرة طاقة إثمارها . وإيتاء أكلها . وهكذا القرآن يجب أن تنصرف هم المصلحين وتتجه عزائمهم إلى فهمه وحده . وفهم حياة النبى العملية التى تفسره وحده . وتنمية شعور المسلمين وتربيتهم على قداسته وحده . وإنما كان هذا لأن تزاحم الأمم على الحياة فى هذا العصر استأثر بالوقت فلم يبق منه للثقافات الدينية والدراسات الروحية إلا القليل ، فيجب اغتنام القليل وتسخيره فى خدمة القرآن فيخف الحمل وتسير السفينة باسم الله .

ورأى بعض جلساء السيد الأفغانى ما تركه الحديث السابق فى نفسه من أثر انفعال وتأثر فرفّه عنه بشىء من المفاكهة والمطايبة وهو سؤاله عن سبب زهده فى الزواج . وسأله آخر من طلاب العلوم عن الجوهر الفرد ودليله . وهما سؤالان متناقضان من حيث الجد والفكاهة . وكان بلغنا أن السلطان عبد الحميد رغب إليه أن يتزوج بإحدى سرارى القصر فيفرد له منزلا بأثاثه ورياشه . على أن السلطان ما كان يهمه أن يتزوج جمال الدين بقدر ما كان يهمه أن يربطه بزوج ومسكن فيبقى تحت مراقبة جواسيسه وتهدأ بلاده وبلاد الشاه خاصة . ولم يغن الشاه ذلك

فتيلا . فإنه قتل بيد رجل من رجال جمال الدين متأثراً بآرائه ونزعاته .

أجاب السيد الأفغانى عن دليل الجوهر الفرد بأننا لو وضعنا كرة تامة الكروية على جسم مسطح تام التسطح لم تثبت عليه الكرة إلا بالجوهر الفرد . وإلا لم تكن الكرة كرة أو السطح مسطحاً. وأفاض فى بيان ذلك وبيان الجزء الذيموقراطى* والفرق بين هذا الجزء وبين الجوهر الفرد الذى يؤدى انكاره إلى القول بقدم المادة وقال إن الجزء الذيمقراطى هو الذى لا ينقسم فى الخارج فعلا وإنما ينقسم عقلا ووهماً . بدليل أنه لو فرض جزء بين جزأين فإما أن يكون له شمال ويمين فيكون منقسما أو لا فيلزم تداخل الأجسام وهو محال .

واعترض الحديث بعض أدباء الترك الحاضرين فى المجلس بمناسبة ذكر الجوهر الفرد فأنشد أبياتاً بالتركية . وصف فيها الشاعر فم محبوبه بشدة الصغر فقال : « جوهر لا يتجزأ ديسه م يانحود فم » أى هل أقول عن فم محبوبى إنه فم أو جوهر فرد .

ومن كلام السيد الأفغانى فى فلسفة اليونان واحتضان فلاسفة الإسلام لها قوله : « ان القول بوحدة الوجود أصله دين قدماء اليونان وقد دخل فى مذاهب العرب عند ترجمتهم لكتب أولئك

---

* نسبة إلى الفيلسوف القائل به وهو ذيموقراطيس .

القدماء . فهو دين متداخل فى دين من غير شعور الآخذين به » .
وكان السيد الأفغانى يعجبه الحديث عن اليونان وفلاسفتهم ومن حذا حذوهم من فلاسفة الإسلام . وهذا ما جعل (رينان) يقول فيه : كنت وأنا أحدث جمال الدين الأفغانى كأنى أحدث ابن سينا أوابن رشد . وروى العلامة سليمان البستانى أن السيد الأفغانى قال له منذ بلغه أنه شارع فى ترجمة الإلياذة : « إنه ليسرنا جداً أن تفعل اليوم ما كان يجب على العرب أن يفعلوه قبل ألف عام ونيف . ويا حبذا لو أن الأدباء الذين جمعهم المأمون بادروا بادىء بدء إلى نقل الإلياذة ولو ألجأهم ذلك إلى إهمال نقل الفلسفة اليونانية برمتها » ا هـ . أما سبب زهد السيد الأفغانى فى الزواج فأجاب عنه بقوله : « الإنسان فى هذا العالم يشبه مسافرا عاريا حافيا يسير فى مفازة ذات تضاريس وأشواك وعواثير تحيط به من كل جانب وهو يجتهد فى التخلص منها ثم النجاة بنفسه سالماً . فما بالكم لو حملنا على ظهر هذا المسافر مسافراً آخر أعياه السير أما يخشى عليه الهلاك ؟ كذلك شأن المتزوج . ثم قال إنه لو تزوج وقد بلغ هذا العمر (وكان عمره يومئذ ستاً وخمسين سنة) لاستغرب الناس منه ذلك كما يستغرب من الشيخ عليش لو سار بتلاميذه إلى أزبكية مصر وجلس معهم إلى بعض المشارب ثم أمر الجارسون أن يحضر إلى الشيخ ده

زجاجة بيرا . وإلى الشيخ دوكها زجاجة شمبانيا .

وكان السيد يرتضخ لهجة مصرية . ولا غرو فقد أقام فى مصر نحو ثمانى سنوات . والشيخ عليش هذا شيخ مغربى من علماء الأزهر اشتهر بالتقوى والصلاح والتشدد فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وله حكايات جمة فى شدته على السيد الأفغانى وتلاميذه وخاصة على الشيخ حسن الطويل (أحد علماء الأزهر المتخصصين فى الفلسفة وتعليمها) فكان الشيخ عليش يهرول إلى مكامنهم فى زوايا الأزهر ويشلّهم بعكازته شلا . ولا يدعهم يلوثون بقاع الأزهر الطاهرة بالكفر والزندقة .

وهكذا عاش شيخنا الأفغانى عزباً . والتحق بربه عزباً . وقد شغله عن اتخاذ الأهل والولد انصرافه بهموم نفسه وشراشر قلبه إلى إنشاء دولة إسلامية تتخذ من أسباب الرقى والمدنية والعزة ما تحمى به نفسها . وتنقذ غيرها من الأمم الإسلامية المستضعفة .

وذكر السيد الأفغانى للشيخ عليش وتمثله به فى مسألة الزواج يدل على أن السيد رحمه الله كان يتسع صدره لغضب الشيخ عليش ويتلقى ما كان منه من شدة الوطأة عليه وعلى تلاميذه بكثير من الصبر وبكثير من العذر: فإن قلق الشيخ عليش وهياجه ضد المشتغلين بالفلسفة خشية أن يتسرب إلى الدين ما يفسده

ويضر بسلامته أمر طبيعى فيمن كان على مثل حاله وورعه وتربيته الأزهرية فلا يستغرب منه هذا بل ربما كان من المستغرب أن يتسامح مع هؤلاء المجددين من النوابت .

أما ما لم يكن طبيعياً فى نظر السيد الأفغانى ولا يمكن أن يتحمله أو يغمض فيه بحال من الأحوال فهو الخيانة الوطنية والتفريط بالمصالح القومية : فما كان يتسامح قط مع أولئك الزعماء الذين يخونون وطنهم ويساومون على مصالح أمتهم . وهذا ما كان من السيد الأفغانى مع شيخ الإسلام التركى (حسن فهمى أفندى) : فإن شيخ الإسلام هذا كان قاوم السيد الأفغانى فى الآستانة لما جاءها لأول مرة . وأخرجه منها ظلماً وعدواناً بسبب خطابه الذى كان ألقاه فى (دار الفنون) كما مر تفصيله . فلم ينس جمال الدين هذا من عمل حسن فهمى فقال فيه كلمة عرض فيها بخيانته لوطنه تعريضاً محضاً . وقد جاء ذلك فى رسالة* للسيد جمال الدين بعنوان (الحكومة الاستبدادية) وقد وصف فيها هذه الحكومة وقارنها بالحكومات الأخرى : حكومة قاسية وحكومة ظالمة ورحيمة وعالمة وأفينة غرة ومتنطسة وقد قال فى رجال هذه الحكومة الأخيرة : يكون من شأن رجالها

---

* نشرت هذه الرسالة فى العدد (٣٣٠) من جريدة مصر بتاريخ ٦٢ صفر سنة ١٢٩٦ هـ الموافق لسنة ١٨٧٨ ميلادية .

كذا وكذا . ويشعرون بأن استكمال سعادة المملكة وصيانة استقلالها لايكونان إلا بارتباطاتها السياسية وعلائقها التجارية مع الممالك الأخرى وأنها لا تتم إلا برجال عارفين دهاة متبصرين محبين لأوطانهم لا كحسن فهمى أفندى شيخ الإسلام الأسبق فى الآستانة الذى كان يقول لعدو وطنه الجنرال (أغناتيف) سفير الروسيا فيها « إنك عينى اليمنى وإن حيدراً ابنى عينى اليسرى » . ذكر ذلك حضرة مدحت أفندى فى كتابه المسمى بأس الانقلاب . ا هـ

٤

وللسيد الأفغانى رسالة بليغة فى إبطال مذهب الدهريين وبيان مفاسدهم . وإثبات أن الدين أساس المدنية . والكفر فساد العمران ألفها السيد باللغة الفارسية . ونقلها إلى العربية الشيخ محمد عبده بمساعدة (عارف أفندى أبى تراب) الأفغانى تابع السيد جمال الدين الخاص . وطبعت الرسالة فى بيروت سنة ١٣٠٣ هـ .

وقد سألنا السيد الأفغانى فى بعض جلساتنا إليه عن السبب فى تأليفه هذه الرسالة التى اشتهرت بأنها رد على النيشريين ومن هم هؤلاء النيشريون ؟ فقال :

إن كثيرين من مسلمى الهند تلوثوا بهذه البدعة التى بثها الإنكليز فى بلادهم من حيث أنهم (أى الإنكليز) رأوها أقرب وسيلة للوصول إلى غرضهم . وتأييد سلطانهم فى الهند . وجد الإنكليز أن الديانة الإسلامية تطلب من أتباعها أن يكونوا أصحاب الشوكة والسلطان فى أوطانهم . ولاحظوا أن ذلك هو طبيعة الإسلام التى لا يمكن انسلاخه عنها . ولا انتزاعها من فطرة ابنائه . ففكروا فى أمر يضعف أثر هذه العقيدة فى نفوسهم فرأوا أن أقرب طريق إلى نيل مرادهم هو نشر التعطيل

بين المسلمين . وأن الدعوة إليه أنفذ إلى قلوبهم من الدعوة إلى التثليث . والتعطيل الذى هو الإلحاد يسمى بالإنكليزية (نيشر) أو (نيجر) Nature * ففتحوا مدرسة عظمى لنشر تعاليم النيشرية وبث مبادئها فى نفوس النشء المسلم . فضل كثيرون منهم . وأشربوا حب الإلحاد فى قلوبهم . ولا سيما أولاد الأمراء الذين كان معظم طلاب تلك المدرسة منهم . فلما ألف السيد رسالته فى الرد على النيشريين . وانتشرت فى طول بلاد الهند وعرضها أخرج كثيرون من أمرائها أولادهم من تلك المدرسة . ورجع آخرون عما كان خامر نفوسهم من التعطيل والإلحاد .

قال السيد : وإنما سعى الإنكليز فى جعل المسلمين دهريين ولم يسعوا فى جعلهم مسيحيين . لأنهم رأوا بعد طول تجربة واختبار أن دعوة المبشرين لمسلمى الهند بالنصرانية لم تنجح . وأن مساعيهم فى نشرها كانت تذهب أدراج الرياح : لأنهم وجدوا أن المسلمين نصارى وزيادة فهم يؤمنون بعيسى ومريم وبجميع التعاليم المعقولة التى علم بها المسيح (ويبرئونه وأمه من كل شين) كما يبرئه المسيحيون .

ولزيادة الفائدة فى التثبت من هذا الموضوع ، موضوع نشر الإلحاد

---

* هذا ما يفهمه الناس من لفظه (نيشر) أما هى فى الأصل فمعناها (طبيعة) (Neture) وكان ينبغى أن تكتب (ناتشور) .

ومقاومة شيخنا الأفغانى له بكل هذه الشدة، ننقل صورة الكتاب الذى أرسله إليه (مولوى محمد واصل) مدرس الفنون الرياضية فى مدرسة الأعزة بمدينة حيدر آباد الدكن من بلاد الهند وهى هذه:

١٩ محرم سنة ١٢٩٨ هـ

قال المولوى محمد (بعد رسوم المخاطبة) : يقرع آذاننا فى هذه الأيام صوت نيشر نيشر . وإنه ليصل إلينا من جميع الأقطار الهندية : من الممالك الغربية والشمالية و (أوده) و (بنجاب) و (بنغاله) و (السند) و (حيدر آباد الدكن) ولا تخلو بلدة أو قصبة من جماعة يلقبون بهذا اللقب (نيشرى) ويظهر لنا أن من يعلق عليهم هذا اللقب ينمو عددهم على امتداد الزمان خصوصاً بين المسلمين . ولقد سألت أكثر من لاقيت من هذه الطائفة : ما هى حقيقة النيشرية ؟ وفى أى وقت كان ظهور النيشريين؟ وهل من قصد هذه الطائفة بمسلكها الجديد عندنا أن تقوّم عماد المدنية . ولا تعدو هذا المقصد ؟ أو لها مقاصد أخرى ؟ وهل طريقتهم تنافى أصول الدين المطلق أو هى لا تعارضه بوجه ما ؟ وأية نسبة بين آثار هذا المشرب وآثار مطلق الدين فى عالم المدنية ؟ والهيأة الاجتماعية الإنسانية؟ فإن كانت هذه الطريقة من النحل القديمة فلم لم تنشر بيننا ولم نعهد لها دعاة إلا فى هذه الأوقات ؟ وإن كانت جديدة فما

لغاية من إحداثها ؟ وأى أثر يكون عن الأخذ بها ؟ ولكن لم يفدنى أحد عما سالت بجواب شاف كاف . ولهذا التمس من جنابكم العالى أن تشرحوا حقيقة النيشرية والنيشريين بتفصيل ينقع الغلة . ويشفى العلة والسلام ا ه .

فأجابه شيخنا الأفغانى بكتاب هذا نصه :

محبى العزيز :

(النيشر) اسم للطبيعة . وطريقة النيشر هى تلك الطريقة الدهرية التى ظهرت فى بلاد اليونان فى القرنين الرابع والثالث قبل ميلاد المسيح . ومقصد أرباب هذه الطريقة محو الأديان ووضع أساس الإباحة والاشتراك فى الأموال والأبضاع بين الناس عامة . وقد كدحوا لإجراء مقصدهم هذا وبالغوا فى السعى إليه . وتلونوا لذلك فى ألوان مختلفة . وتقلبوا فى مظاهر متعددة . وكيفما وجدوا فى أمة أفسدوا أخلاقها . وعاد عليهم سعيهم بالزوال . وأيما ذاهب ذهب فى غور مقاصد الآخذين بهذه الطريقة تجلى اه أنه لا نتيجة لمقدماتهم سوى فساد المدنية . وانتقاض بناء الهيئة الاجتماعية الإنسانية : إذ لا ريب فى أن الدين مطلقاً هو سلك النظام الاجتماعى . ولن يستحكم أساس للتمدن بدون الدين ألبتة . وأول تعليم لهذه الطائفة إعدام الأديان وطرح كل عقد دينى . وأما عدم شيوع هذه الطريقة وقلة سُلاكها مع طول

الزمن على نشأتها فسببه أن نظام الألفة الإنسانية وهو من آثار الحكمة الآلهية السامية كانت له الغلبة على أصولها الواهية . وشريعتها الفاسدة . ولهذا السر الآلهى انبعثت نفوس البشر لمحو ما ظهر منها . ومن هذا لم يسبق لهم ثبات قدم . ولم تقم لهم قائمة أمر . ولا فى وقت من الأوقات . ولتفصيل ما ذكرنا نتقدم بانشاء رسالة صغيرة أرجو أن تكون مقبولة عند العقل الغريزى لذلك الصديق الفاضل وأن تنال من ذوى العقول الصافية نظرة الاعتبار ا هـ .

شرح لنا السيد الأفغانى فى مجلسه كل هذا وانتهى به القول إلى وصف ما عليه قبائل الهند من الجهل والغباوة . وقال: حبذا لو أن الدولة العثمانية ترسل بعثات من العلماء إليهم لا لأجل دعوتهم إلى الإسلام فإنهم مسلمون . ولكن لأجل أن يعلموهم قواعد الإسلام : فإن جهلهم لها جعلهم مسلمين بالاسم . حتى إذا سئلوا عن الدين الذى يدينون به قالوا فى الجواب (نأكل لحم البقر والحمد لله) يعنون أنهم من أتباع الدين الذى كل ما يعرفونه عنه أنه يبيح لهم أكل البقر . وليسوا من اتباع الدين الذى لا يبيح لهم ذلك ؛ وهو دين وثنيي الهند الذين يعبدون البقر . ولا يأكلون لحومها .

قال : فقبائل الهند لا يعرفون من أحكام دينهم دين الإسلام

إلا جواز أكل لحم البقر . مثل هؤلاء يجب علينا أن ننشر بينهم تعاليم ديننا . وهذا بالطبع أقرب وأوجب من نشره بين غير المسلمين . ثم قال : وياليت أهل مصر الذين ينفقون فى موالد الأولياء مليونى ليرة أو أكثر فى السنة الواحدة أنفقوا ذلك فى سبيل نشر الإسلام بين تلك القبائل الجاهلة فإنه أصلح للأمة . وأعون على لم شعثها .

واستطرد إلى وصف نيشريى الهند ومآربهم والطرق التى يسلكونها للوصول إلى أغراضهم : من ذلك أنهم يدعون أن ابراهيم وموسى وعيسى وطائفة كبيرة من عظماء العالم كانوا نيشريين : يضللون بذلك عقول السذج ويهونون عليهم الدخول فى بدعتهم .

وما قاله السيد عن نيشريى الشرق الأوسط ذكرنى بما يقال عن ماسون الشرق الأدنى فقلت له : إنه لا يوجد فى بلادنا نيشرية ولا نيشريون وانما يتردد مكان ذلك اسم الماسونية والماسون وتدعى هذه الطائفة أن كثيرين من عظماء التاريخ كانوا من شيعتهم . فما هو المبدأ الماسونى وما هو مختصر تاريخ الماسونيين؟ فقال : إن الماسونية نشأت فى الأوربا (كذا كان يلفظها السيد وكأنها ترجمة لقول الافرنج Europe) وكان الغرض من نشوئها فى الأصل إضعاف السلطة البابوية . فقلت له : إذن هى مسيحية

محضة فى نشأتها وفى أغراضها التى ترمى إليها فما لها ولغير المسيحيين؟
فقال : إن السبب الأصلى فى قيام الماسونية هو ما قلناه من مقاومة سلطة البابا لكن أربابها لما دونوا تعاليمها رأوا تقوية لها أو لأنفسهم أن يوسعوا نطاق تلك التعاليم بحيث يسمح لغير المسيحيين أن يدخلوا فيها ويعدوا من أبنائها . وبذلك أصبحت الماسونية شيعة سياسية أو حزباً سياسياً لا شائبة للدين فيه . غير أن دعاتها يشترطون على من أراد الانتساب إليها أن يكون معتقداً بوجود الله وببقاء النفس من حيث يؤدى ذلك إلى سلامة البشر من الإلحاد . وإفاضة المدنية على مجتمعه .

ثم قال السيد : وكما كانت روح الماسونية سياسية محضة كانت روح البروتستانية سياسية دينية . ومن هنا انساق الحديث إلى طائفة (الجزويت) فقال السيد إنها جمعية دينية محضة ثم شرح ما لهذه الطائفة من النية السوأى نحو الإسلام وأهله . فذكرت له مثالا لذلك ما كان يرتكبه بعض اليسوعيين من تحريف الكتب التى يطبعونها والتلاعب بالنصوص التاريخية التى ينشرونها . وفيها بعض الكيد للمسلمين . وبذلك شوهوا خدمتهم للعلم والتاريخ . وأضعفوا من ميل المسلمين إلى الاستفادة من مطبوعاتهم . فوافق السيد الأفغانى على ما قلته . وأيده بقوله : إن اليسوعيين لم يطردوا من فرنسا إلا لكثرة دسائسهم وغلوهم فى

بمذهبهم حتى أصبح اسم (جزويت) شتما يشتم به الرجل الآخر . على أن تلك الطائفة قليلة العدد بالنسبة إلى غيرها من الرهبنات فإن اتباعها لا يتجاوزون العشرين ألفاً . وسبب هذه القلة فيهم أنهم لا يقبلون دخول أحد فى زمرتهم ما لم يتوفر فيه شرطان : الأول أن يكون غنياً ذا ثروة ونفوذ مالى عظيم . والثانى أن يكون عالماً متبحراً . أو خطيباً ماهراً . ويختبرون مقدرته بإعطائه موضوعاً علمياً يكتب فيه ويعلق عليه من رأيه . فإن أعجبهم قبلوه وإلا رفضوه .

وسألنا شيخنا عن مصير آثاره وما وضعه من الرسائل والتصانيف فقال إنه لا يوجد لديه منها فى الأستانة شيء وقد تركها فى لندن حينما غادرها إلى الآستانة على جناح السرعة . حتى إنه لم يصحب من أمتعته سوى سفط أودعه لبوس بدنه .

وسألته عما إذا كان أنجز وعده الذى بلغنا عنه من أنه سيؤلف كتاباً فى حقيقة الديانة الإسلامية فقال إنه لم يؤلفه بعد وإنما هو كتب باللغة الفارسية عدة مقالات فى الدين الإسلامى وسمو تعاليمه لكنها ليست محفوظة لديه وإنما هى مبعثرة هنا وهناك عند أصدقائه ومريديه الكثيرين المنتشرين فى الهند والبصرة ومصر ولندن .

ولما سمعنا هذا من السيد عجبنا منه كيف لا يرغب فى وضع التصانيف المطولة وإنما ترتاح نفسه إلى كتابة المقالات فى الدين الإسلامى وسمو تعاليمه والدعوة إليه . وياليته جمع تلك المقالات وأعدها للطبع ولم يتركها مبعثرة هنا وهناك لدى أنصاره المنتشرين فى أقطار العالم الإسلامى . وهو أيضاً لم يكترث لذكر بعض مصنفاته التى طبعت كرسالة (الرد على النيشريين) ورسالة (البيان فى تاريخ الإنكليز والأفغان) و (العلة الحقيقية لسعادة الإنسان) . على أن هذه الأخيرة ليست مستقلة وإنما هى مقدمة صدر بها تاريخه (البيان) المذكور* .

وروى الشيخ عبد الرشيد أبرهيم إن للسيد الأفغانى رسالة فى الرد على المسيحيين . ولم يذكر شيخنا الأفغانى هذه الآثار ولم يعدها من مصنفاته . وإنما اقتصر على ذكر مقالات كتبها فى سمو الدين الإسلامى . ومثل السيد الأفغانى تلميذه (أستاذنا الشيخ محمد عبده) فإنه أيضاً ما كان يعنى بوضع المصنفات ولم يؤثر عنه منها إلا رسالة لطيفة الحجم فى العقائد الإسلامية .

---

* وكلا الرسالة والتاريخ طبعا بمطبعة جريدة مصر فى الإسكندرية سنة ١٨٧٨ م ثم أعيد طبع التاريخ وحده ١٩٠١ باسم (تتمة البيان فى تاريخ الأفغان) فى مطبعة الموسوعات بمصر على نفقة على يوسف الكريدلى . وفى تسمية التاريخ بالتتمة خطأ إذ أن التتمة اسم المقدمة لا التاريخ .

وهى (رسالة التوحيد) المشهورة . والإرسالة فى إصلاح المحاكم ورسالة فى الرد على هانوتو . ورسالة فى الإسلام والنصرانية . وله مصنف فى العلوم الأزهرية تكلفه منذ كان يعمل مع علماء الأزهر فى علوم الأزهر . فأنت ترى أن آثاره لم تتخط شكل الرسالة واسمها . وما نسب إليه من التفسير لم يضعه وضعاً بقصد التصنيف فى تفسير القرآن وإنما هى دروس كان يلقيها على الطلاب فى الرواق العباسى أحد أروقة الأزهر فكان الحريصون من المريدين وأشهرهم صديقنا (الشيخ رشيد رضا) يدونون ما يسمعون منه فى التفسير . فالمصلحان العظيمان لم يشاءا أن يؤلفا ولا أن يخوضا غمار المناقشات الدينية والعلمية : علماً منهما بأن كثرة الخوض فى أحكام الدين وعقائده وموروث تعاليمه والتوسع فى شرحها يزيد المسلمين بلبلة وخلافاً ويورط الخائض فى مناظرات مع الآخرين تؤدى حتماً إلى مهاترات ومجادلات تنتهى أخيراً إلى بذاءات ومنابذات . علم هذا شيخانا العظيمان فزهدا فى إطالة النفس فى وضع المصنفات . وعدّا ذلك قاطعاً عليهما عملهما فى الإصلاح الإسلامى والاشتغال عنه بما لا يفيد من العلم . ولا ينسجم مع أخلاق العلماء . ولا جرم أن الجدل مع المخالفين والرد ورد الرد يشغل رجال الإصلاح عما هم بسبيله من الإصلاح . وتعبيد طرقه . وتعميم الدعوة إليه . هنا دعوة

إلى الإصلاح الديني وقرت في نفس المصلحين العظيمين وقد تعبدا إلى الله في نشرها . وإقناع إخوانهم المسلمين بها . ويجب أن يسبق الدعوة إلى الشيء تعيين ذلك الشيء وتشخيص هدفه وتحديده من أطرافه . وأن يكون ململماً موجزاً تحيط به نفس السامع . ويستوعبه فهمه . وتتشربه مداركه : فلا ينبغي أن يشاب الإصلاح بما ليس من موضوعه من الاستطرادات والحشويات . ولو بحجة الرد عليها : فإن ذكرها يغرى بها . ويفتح باب الجدل حواليها . كما وقع للمؤلفين الأقدمين من فحول علمائنا . وبعد أن تحدد مطالب (الإصلاح) وتعين يجب الإلحاح في الدعوة إليها . وحمل الآخرين على النظر فيها . وكلما حاول الآخرون الخروج عنها إلى الجدل في غيرها ردهم المصلح بلطف أو بعنف إليها قائلا : هذه هي مطالب الإصلاح لا نزيد بدلا منها . ولا انصرافاً عنها . وإذا لم يكن للمصلح بد من الجدل قصر جداله عليها . وإذا حورب حورب من أجلها . وليحذر اللغط . فإنه من أكبر الغلط . هذا (لوثيروس) أشهر المصلحين الذين نجحوا في إصلاحهم إلى أبعد حد . لم يكن يقدر له النجاح لو لم يدع إلى شيء معدود ومبدإ محدود . غامر في الدعوة إليه . والصبر عليه . وعرض نفسه للخطر في سبيله . فنال المراد . وقضى نهمته مما

أراد . ولا تظنه خرج فى دعوته إلى الجدل فى غير مطالب الدعوة المعدودة المحدودة . ولذا عاشت دعوته وملأت الخافقين رعيته .

ما لنا وله، هذا (محمد) وبحسبنا (محمد) مثلا : قام صلى الله عليه وسلم فى وجه المشركين فرفع صوته بالدعوة إلى شيء واحد : الأوثان باطلة . والله واحد . التوحيد التوحيد . دعوا الشرك دعوا الشرك . قضى على ذلك عشر سنوات فى بقعة واحدة (مكة) . لا تكاد تعرف له دعوة فيها إلى غير توحيد الإله . وخلع الأوثان . والاستكثار من ضرب الشواهد والأمثال وتنويع أساليب الحجاج فى تصوير قبح ما هم عليه . وحسن ما يدعوهم إليه . وبهذه الصورة انتشر التوحيد . وخالطت بشاشته قلوب العرب . حتى إذا تم له صلى الله عليه وسلم ما أراد أخذ فى وضع بناء الشرع على أساسه . وتوجيه أتباعه إلى الاهتداء بنبراسه .

وهذا ما كان يطمح إليه شيخنا الأفغانى . ولذلك لم يكثر من التأليف خشية أن يصرفه عن الدعوة إلى المقصود والأمل المنشود وهو وحده يجب أن يكون هدف المصلحين العاملين .

* * *

وجرى فى بعض جلساتنا إلى السيد ذكر ما وقع له ولناصر الدين شاه من الإحن والمحن . وقلنا له إننا اطلعنا على كتابه الذى

أرسله من البصرة إلى أكبر مجتهدى الشيعة (جناب الحاج الميرزا محمد حسن الشيرازى) المقيم فى (السامرا*) .

وأشرنا إلى ما فى الكتاب من بلاغة وحسن تصرف فى التهييج وإثارة الحفائظ على الشاه. فتهلل وجه السيد وتدفق فى وصف ما وقع له من ذلك الشاه . وكان يلذ له تكرار الحديث فى ذلك فقال :

جئت بطرسبرج فمكثت فيها أكثر من أربع سنوات . وفى خلال هذه المدة زارها الشاه . وأحب الاجتماع بى . فلم أرغب فى مقابلته . ثم سافرت إلى (مونيخ) من بلاد الألمان . فجاءها الشاه أيضاً . وطلب مقابلتى فامتنعت . فتوسط بيننا بعض كبار الرجال الألمانيين وغيرهم فاجتمعنا وطلب منى الذهاب إلى بلاده كى يجعلنى رئيس وزرائه . فأبيت وقلت له إننى متهيء للسفر إلى باريس ومشاهدة معرضها (سنة ١٨٨٩ م) ولكن الشاه أخذ يلح على الحاحاً شديداً . فلم أجد مناصاً من إجابة طلبه . والذهاب معه إلى بلاده . قال السيد : ومن جملة قول الشاه فىّ « هذا رجل العالم السياسى الحربى اللائق أن يكون رئيس وزارة يقوم فيها بتدبير الأمة » . فقلت للسيد كيف يدعوك الشاه لأن تكون رئيس وزرائه وأنت مشهور بفرط رغبتك فى تشييد عقائد أهل السنة ؟ فقال جنون منه وهوس .

---

* واقعة على الدجلة بين بغداد وتكريت وهى (سر من رأى) المتصحبة

(كذا سألته وكذا أجابنى) وكلا السؤال والجواب مستغرب فى نظرى اليوم . ولا أتذكر السبب الذى دعانى إلى أن أوجه إليه هذا السؤال . ويخطر لى أننى إنما أردت استخراج تصريح منه فيما يتعلق بكونه أفغانيا سنيًّا أو إيرانيًّا شيعيا . فدل جوابه على أنه ليس من الإيرانية ولا الشيعية فى شىء . قال السيد : وبعد أن أقمت فى بلاد إيران حيناً من الزمن طلبت الذهاب إلى الأوروبا فمنعنى الشاه من السفر وبلغنى عن لسانه كلام خشن فىّ . وأنه ينوى لى نية سوء . وأن يحجر على فى البلاد الإيرانية، فاحتلت على الذهاب إلى مقام شاه عبد العظيم على مسافة عشرين كيلو متراً من طهران . والشاه عبد العظيم هذا من أحفاد بعض أئمة آل البيت . ومقامه حرم من دخله كان آمناً . فمكثت ثم سبعة أشهر وكتبت وأنا هناك عدة مقالات . وحررت فى الجرائد جملة رسائل أودعتها مثالب الشاه وحض الشعب الإيرانى على خلعه . ثم خرجت من مقام الشاه عبد العظيم إلى البصرة وأقمت فيها حيناً وجرت لى أمور ذات بال : منها إرسال الكتاب إلى بعض مجتهدى الشيعة . ثم قمت من البصرة إلى لندن وعدت إلى الكتابة فى تقريع الشاه وذمه . والعمل على إسقاطه . ومن لندن طلبنى جلالة السلطان عبد الحميد فاعتذرت بأنى منهمك فى أمر الشاه . ومشغول بمقاومته . ثم طلبنى ثانية (وكان الشيخ أبو الهدى

تعهد للسلطان بأنه سيقنع السيد بلزوم الحضور) فأجبت الطلب ويممت دار السعادة . ناوياً الرجوع إلى لندن بعد مقابلة السطان فأنال أربى من تنكيس الشاه . وإنزاله عن العرش . (وما أشد سلامة صدر السيد الأفغانى مذ ظن أنه يمكن الخروج من الاستانة . والتخلص من الفخ الذى أوقعه فيه السلطان عبد الحميد والشيخ أبو الهدى) قال : ولما قدمت الاستانة أخبرنى السلطان بأن سفير إيران طب مقابلته مرتين فكان لا يسمح له . ثم أذن له فى المرة الثالثة . فكان مما قاله السلطان لجمال الدين : طلب منى السفير أن آمرك بالكف عن الشاه وترك التعرض له . وهأنذا أطلب منك تركه والإعراض عنه . فقلت إننى امتثالا لأمر مولانا خليفة العصر (عفوت الشاه عفوت الشاه) . فقال السلطان حينئذ : يحق لشاه إيران أن يخاف منك خوفاً عظيما . وقد كان أشكل على يومئذ قول جمال الدين (عفوت الشاه) أى تعدية فعل (عفا) بنفسه من دون حرف الجر (عن) فراجعت بعض المعاجم فوجدتهم يجوزون تعديته بنفسه على هذه الصورة : عفوت عن فلان . وعفوت عن فلان ذنبه . وشيخنا الأفغانى لم يقل عفوت عن الشاه ذنبه بل قال عفوت الشاه . فلا يزال فى صحة عبارته نظر .

وذكر السيد أنه حمل بعض مجتهدى إيران على تحريم شرب

الدخان وقد أراد ببعض المجتهدين (الميرزا محمد حسن الشيرازى) فأصدر المجتهد فتوى حرم فيها على الإيرانيين شرب الدخان فامتنعوا عن شربه امتناعاً شديداً حتى أن الشاه طلب نارجيلة (شيشة) ليدخن بها . فأجابه حجابه بأنه لا توجد النارجيلة فى القصر . لأن المجتهدين حظروا التدخين .

وثار العامة على الشاه وأحاطوا بقصره ليقتلوه أو يلغى المقاولة المعقودة مع الإفرنج لأجل تأسيس شركة (ريجى) فى بلاده فاضطر الشاه إلى فسخ المقاولة . ودفع إلى أربابها فى مقابل العطل والضرر تعويضاً بلغ نصف مليون ليرة إنكليزية . هذا ما قاله جمال الدين فى بيان السبب الذى جعل الشاه يلتجىء فى آخر الأمر إلى السلطان عبد الحميد ويتوسطه فى كف صولة جمال الدين عنه .

ويحسن أن نروى للقارىء ملخصاً من خبر إقامة السيد الأفغانى فى البصرة وما جرى له فيها حسبما أشار إليه السيد نفسه فى حديثه السابق .

قص على أحد وجهاء طرابلس الشام الخبر الآتى يرويه عن صديقه الشيخ عبد الحميد أفندى الرافعى وكان متولياً قضاء البصرة لحين نزول السيد جمال الدين الأفغانى فيها مبعداً من قبل حكومة شاه إيران . وإنما حدثنى الوجيه الطرابلسى بهذا الحديث

لأنه سمع منى وصف الضجة القائمة حول أفغانية السيد جمال الدين وإيرانيته على أثر ما نشره (محمد حسن خان) الملقب باعتماد الدولة وهو من كبار موظفى حكومة إيران المقربين لدى ملكها ناصر الدين شاه — فى كتابه (المآثر والآثار)— وهو بمثابة السالنامات التى تصدرها الحكومة العثمانية فى بلادها من وقت إلى آخر . فقد قال اعتماد الدولة : « إن جمال الدين من قرية أسد أباد من أعمال إيران . له مقام عال فى العلوم العتيقة والجديدة . يفتخر به أهل إيران ولهم الحق . تعلم العلوم الشرعية فى مدينة قزوين ومدينة طهران . وسافر إلى بلاد أفغانستان وهندستان ومنها إلى الممالك العثمانية ومصر . إلى أن قال : وأهل السنة والجماعة يزعمون أنه أفغانى الجنس كما كتب كبير تلامذته أستاذ الأدب الشيخ محمد عبده فى مقدمة رسالة الرد على الدهريين » . انتهى قول اعتماد الدولة . وسألنى سائل فى بعض أندية طرابلس عن هذا القول وعن التوفيق بينه وبين ما قاله كل من الشيخ محمد عبده وأديب بك إسحق وسليم بك عنحورى وثلاثتهم من أصدقاء الأفغانى وممن خالطوه طويلا وقد حققوا أنه أفغانى الجنس . فقلت فى التأويل : إننى وأنا فى مصر (٩٠٥— ٩٠٩م) سمعت فاضلا إيرانياً أزهرياً يروى عن شيوخ قومه أن والد السيد جمال الدين إيرانى من ولاية (مازندران) إحدى

مقاطعات إيران وكان ضابطاً فى الجيش الإيرانى . فارتأت حكومة إيران أن ترسل ضابطها هذا إلى بلاد الأفغان فى مهمة تتعلق بالحدود بين المملكتين أو لسبب آخر من الأسباب . فذهب الضابط إلى بلاد الأفغان وطابت له السكنى فيها . وتزوج إحدى كرائمها . وولد له جمال الدين منها فى بلاد الأفغان . أو أن جمال الدين ولد لأبيه فى إيران ثم حمله أبوه معه إلى الأفغان حين ذهابه إليها ا هـ .

هذا ما قاله الإيرانى الأزهرى مما يصلح للتوفيق بين القولين والتقريب بين الروايتين . وعلى هذا تكون تسمية جمال الدين بالأفغانى وهو إيرانى كتسمية مؤرخى العرب للإسكندر ابن فيلبوس (الاسكندر اليونانى أو الرومى) مع أنه مكدونى : لم يولد فى بلاد اليونان . ولا علاقة له بشعبها . لكنه افتتحها وكان أستاذه (أرسطو) من فلاسفتها . ومعظم جنوده من أبنائها . ولم استتم كلامى هذا عن نسبة جمال الدين حتى انبرى الوجيه الطرابلسي المذكور وقال ممتعضاً منكراً كل ما قالوه فى نسبة جمال الدين إلى إيران وقال : إن جعل السيد من أبناء إيران أو مواليد إيران فرية افترتها عليه حكومة ناصر الدين شاه بقصد الانتقام منه . وإن الخبر اليقين هو فيما حدثنى به صديقى (الشيخ عبد الحميد الرافعى) قاضى البصرة فى أثناء نزول

الأفغانى فيها مبعداً من إيران فهو إذن شاهد عيان . قال القاضى : كان والى البصرة ليوم قدوم جمال الدين إليها (هدايت باشا) وهو رجل جليل القدر كثير التقوى والصلاح . فاحتفل الوالى وأركان الولاية بالسيد وأكرموا نزله . وإذا برقية (شيفرة) وردت إلى الوالى من المابين يسألونه فيها عن نشأة جمال الدين وأصله وفصله وهل هو إيرانى كما يزعم الشاه . قال القاضى : فاستحسن الوالى أن يتوسطنى لدى السيد جمال الدين فأسأله عن أصله . ومبتدإ خبره من حيث لا أجعله يشعر بقصدى و وساطتى. ولكن ذكاء جمال الدين الخارق جعله ينتبه إلى الغرض من سؤالى . فبادرنى بقوله إنه أفغانى الأصل والفرع وأنه لا علاقة جنسية له بإيران ولا تابعية . وأن الشاه يشيع ذلك عنه إرادة اجترارة إلى إيران ثم الانتقام منه والتنكيل به . قال (أى جمال الدين) وفى سنة ١٢٨٧ هـ فى زمن وزارة صفوت باشا للمعارف كان عينه عضواً فى مجلس المعارف الأعلى بناء على كونه أفغانى الجنس ثم قال فليسألوا (أى رجال المابين). الوزارة المشار إليها إن أحبوا.

قال القاضى : فأبلغت هدايت باشا ما قصه على السيد الأفغانى فأودعه برقية شيفرة رفعها إلى المابين . قال القاضى وبعد أن أبل السيد الأفغانى من مرضه الذى أصيب به وهو مبعد فى (شاه عبد العظيم) تهيأ للسياحة فى داخل جزيرة العرب وهو

المشروع الذى قام به بعده المرحوم (السيد عبد الرحمن الكواكبي)
غير أن الوالى هدايت باشا منعه عن هذه الرحلة ريثما يكتب
إلى المابين ويستطلع رأى أهله فيما عزم عليه جمال الدين . فجاء
جواب السلطان عبد الحميد بالحيلولة بينه وبين ما عزم عليه
فلم يخف سر ذلك على جمال الدين فطواه فى كشحه . ثم
استأذن بالسفر إلى لندن فاستشار الوالى المابين فأذنوا له بإطلاق
سراحه فعجل جمال الدين بالسفر إلى لندن وقد أصاب لأن
المابين عاد فأرسل شيفرة إلى والى البصرة يمنع جمال الدين من
السفر إلى لندن أيضاً . قال القاضى : ولما هم السيد جمال الدين
بركوب البحر إلى لندن لم يكن فى جيبه سوى عشرة جنيهات
فتعجب هدايت باشا من إقدام السيد وكبر همته . وتذاكر مع
أعيان البصرة فى أمر مساعدته فاكتتبوا له : الوالى بخمسين
جنيهاً ، ونقيب الأشراف (عبد الرحمن أفندى النقيب والد طالب
باشا) بمائة وخمسين جنيهاً . وهكذا إلى أن جمعوا له خمسمائة
جنيه . فسر السيد بما كان من صنيع الوالى وشكر له عليه
وقال له : أرجو أن أكافئك خيراً جزاء ما صنعت بى . فأجابه
الوالى : كيف تكافئنى وقد بلغت من الكبر عتياً . أقول : وقول
جمال الدين هذا يشعر بما كان قد وقر فى نفسه من حب هذا
الوالى الصالح واحترامه الشديد له . ولولا ذلك ما قبل منا

الخمسمائة جنيه التى جمعها له من أعيان البصرة : إذ أن المعروف من أخلاق جمال الدين وكبر نفسه الاستنكاف عن قبول أمثال هذه العطايا والمنح وفى مثلها قال كلمته المأثورة : « الأسد أينما ذهب لا يعدم فريسته » . قالها لما أراد قنصل إنكلترا فى السويس وبعض إخوانه أن يعطوه نفقة سفر إبعاده .

ووصل السيد جمال الدين إلى لندن ولبث فيها يخطب ويكتب طاعناً فى الشاه وحكومته حتى أثر طعنه فى العلائق بين الحكومتين الإيرانية والإنكليزية . وأكثر ما كان يكتب فى جريدة (ضياء الخافقين) بتوقيع (السيد) وكانت هذه الجريدة تنشر باللسانين العربى والإنكليزى . وكانت تصدرها شركة إنكليزية وقد جعلت غرضها (حصول التواصل والتعارف بين الغربيين والشرقيين) . وقرأت فى (ضياء الخافقين) مقالا للسيد فى وصف ما كانت عليه بلاد إيران من الانحطاط وسوء الحال ختمها بقوله : « أسفاً على هذه الأمة كيف أبادها الجور . وبددها الظلم . حتى سقطت من عداد الأمم العظيمة . وكاد أن يندرس رسمها . وينطمس اسمها. أين العلماء ؟ وأين حملة القرآن ؟ وأين حفاظ الشرع ؟ والقائمون بأمر الأمة ؟ وأين نصراء الحق والعدل إلخ . . » بمثل هذا القول الثائر والمحرض أحرج الشاه وضاق صدره فالتجأ إلى السلطان فكتب السلطان إلى سفيره فى لندن رستم باشا فلم يفلح

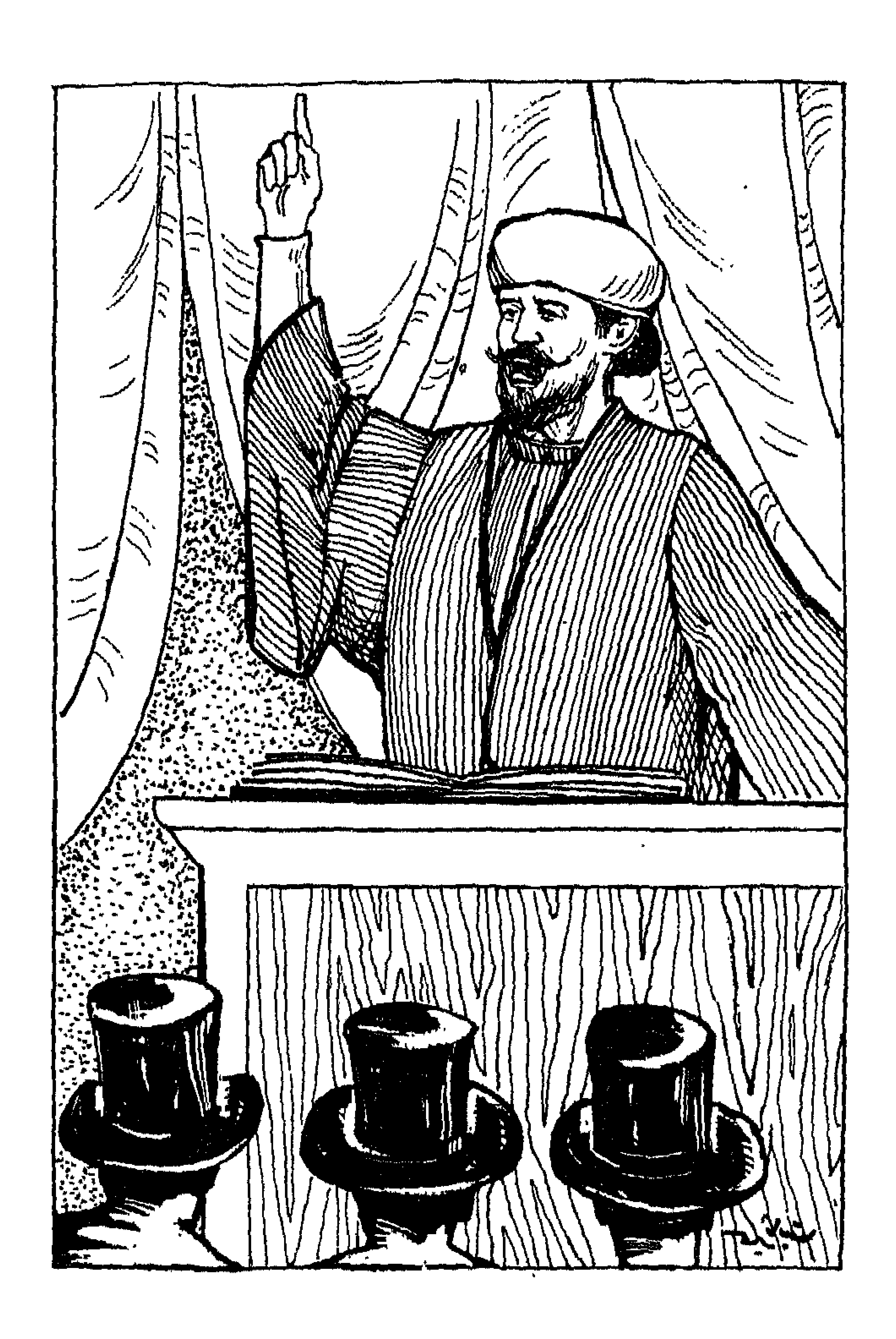
السفير ، وأخيراً أفلح الشيخ أبو الهدى منذ كتب إلى السيد الأفغانى ضروباً من الرقى . وأفانين من المنى . وكان السيد طيب القلب سليم الصدر سهل الانخداع فوفد إلى الأستانة . وإذا القاضى عبد الحميد أفندى الرافعى كان قد انقضت مدة نيابته فى البصرة فجاء الأستانة يطالب بغيرها . قال القاضى : زرت صديقى السيد الأفغانى فكان أول ما سألنى عنه (هدايت باشا) وكيف حاله ؟ فأخبرته بوفاته فترحم عليه وكلفنى أن أبحث عن مقر عائلته وما هى حاجاتها حتى يقضيها لها . فبحثت عنها . وسألتها عن حالها . وإذا هى فى أشد الضيق يومئذ : أرملة الباشا وابنته كانتا تسعيان لدى نظارة الحربية فى تقييد ابن ابنة الباشا فى سجل (الزاده كان) أى مع أبناء الأشراف والبيوتات القديمة لكى يخصص له راتب فلم تنجح شفاعتهما . ولما بلغ الخبر السيد جمال الدين شفع فى الولد فقيد اسمه فى (الزاده كان) وعين له معاش دائم ثلاثون جنيهاً . كما وظف للأرملة وابنتها خمسون جنيهاً . ووجهت رتبة عالية على صهرها .

وبمثل هذه الأخلاق الفاضلة والمزايا العالية كان جمال الدين جمال الدين لا بالانتساب إلى الأفغانيين أو الإيرانيين . هذا ما كان من أمر السيد وخبره الذى استقيناه من فم قاضى البصرة مذ كانا فى البصرة .

٥

ونرجع إلى مجالسنا إلى السيد مذ كنا معاً فى الأستانة سنة (١٣١٠ هـ) : للسيد الأفغانى كتاب فى تاريخ الأفغان سماه (البيان فى تاريخ الأفغان) وقد مر ذكره . إذا تصفحته وجدت فيه مقاطع كثيرة يستأنس بها على أن السيد كان أفغانياً سنياً . لا إيرانياً شيعياً . من ذلك قوله : « وجميع الأفغانيين سنيون متمذهبون بمذهب أبى حنيفة لا يتساهلون رجالا ونساء وحضريين وبدويين فى الصلاة والصوم . سوى طائفة (نورى) فإنهم متوغلون فى التشيع ولهم محاربات شديدة مع جيرانهم السنيين . ولا يبالون بالصلاة والصوم . وإنما يهتمون بأمر مأتم الحسين (رضى الله عنه) فى العشر الأول من محرم ويضربون ظهورهم وأكتافهم مكشوفة بالسلاسل » اهـ .

ولو كان الأفغانى إيرانياً لكانت لهجته فى التحدث عن سنية الأفغانيين وتشيع بعض طوائفهم غير هذه اللهجة . ولكان أفرغ كلامه فى أسلوب آخر يعرفه كل من قرأ كتابات الفريقين السنة والشيعة إذا تكلموا عن حوادثهم وسردوا من أخبار تاريخهم ونشوء فرقهم ونحلهم . وألذ ما يجده القارئ فى تاريخ الأفغانى وصف



السيد الأفغانى فيه لقبائل الأفغان وعاداتهم وأخلاقهم وتقاليدهم فى أفراحهم وأتراحهم . مما يدل على لطافة طبع السيد وحبه للمزاح والدعابة مثلما رووا عن جده سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه . من ذلك قوله : وقلما يوجد البصل عند بعض القبائل كقبيلة (يوسف زائى) وقبيلة (أجيك زائى) فتجدهم إذا رأوا أجنبياً يتملقون إليه . ويتذللون بين يديه . قائلين (عندنا مريض فنرجو منك أن تتفضل عليه ببصلة عسى أن يكون شفاؤه فيها) . وإن قبيلة (أجيك زائى) كثيراً ما يتعرضون للقوافل إرادة السلب والنهب . يسدون طريقها . ويقابلونها بالأسلحة النارية . والآلات الحادة . فإذا لم يمكنهم أن يتغلبوا عليها صالحوها على أقة أو أقتين من البصل . واتفق أن ملك الأفغان (محمد أعظم خان) بعد ما ترك البلاد الهندية وفد على قبيلة (يوسف سزائى) ونزل فى خيمة خانها . فقام الخان مسرعاً وعلى وجهه لوائح الفرح وإذا به يقدم للأمير بصلة .

ومن لطيف ما جاء فى مقدمة تاريخ الأفغان، وفيه دلالة على تشاؤم السيد الأفغانى بالإنكليز ونفرته منهم ومن جشعهم فى سلب الممالك والاستيلاء على الشعوب ، قوله يصف عزة الأمة الأفغانية وحبها للحرية والاستقلال : « ولم ترض الدخول تحت

حماية الحضجر[١] المبتلى بجوع البقر والاستسقاء ، الذى لم يشبعه ابتلاع مائتى مليون من الناس ، ولم ترو مياه التيمس والكنج بل فغر فاه ليبتلع بقية العالم ويكرع مياه النيل وجيحون » لاجرم أن للإنكليز الحق فى أن يبغضوا جمال الدين ويجعجعوا[٢] به : فقد كان يهيج الهنود عليهم ويثير حفائظهم ويوقد نار حميتهم بمثل قوله لهم : « أما والله لو كنتم سلاحف وأنتم بهذه الكثرة وسبحتم إلى الجزر البريطانية ورفستموها بأرجلكم لأغرقتموها إلى قاع البحر » . ويذكر هذا بما كان يقوله (عبد الله نديم) ثورتهم ويهول به وهو يستثير همم العرابيين ويحضهم على الثبات فى ضد الإنكليز ــ يقول : « لا تخشوا صولة الأسطول الإنكليزى الراسى فى جزيرة كريد . فإنه تحت رحمة مدافع طابياتنا فى الإسكندرية . ومدافع طابيات الأتراك فى جناق قلعة » . وما كانت حجج جمال الدين فى مناظراته ترتكز على الغلو والتهويل فقط بل كان أحياناً يعمد إلى الحجة البليغة من أقرب طرقها ويفجأ بها الخصم فيفحمه ويقطع عليه حجته . جرى يوماً جدال بينه وبين بعض كبار الأوربيين فى موضوع المفاضلة بين الشرق

---

(١) الحضجر على وزن قمطر العظيم البطن الواسعه . ومن أجل ذلك سميت الضبع حضجرا .

(٢) أى لا يدعونه يستقر فى مكان بل يطاردونه إلى حيث يأمنون شره .

والغرب فاقتحم السيد خصمه بنبرة حادة قائلا : « كفى الشرق شرفاً أن قام منه رجل ما زالت تعبده أمم أوربا إلى اليوم » . وقد عنى بالرجل السيد المسيح .

وكان السيد جمال الدين رحمه الله يزيدنا على ما تقدم كثيراً من وقائعه وشؤوناته الخاصة ومن تاريخ الأفغان وطباع أهلها . ولما تساءلنا فى المجلس السابق عن كلمة (الخضجر) التى وصف بها الإنكليز قلت له : لعل بلاد البلوجستان الواقعة فى جنوب الأفغان سلمت من ابتلاع الخضجر لها فضحك وقال : تكاد أن تسلم . ثم سألناه عن تلك البلاد وعما إذا كانت جزءا طبيعياً من بلاد الأفغان وإننا لنراها مخططة فى المصورات الجغرافية ولكنا لا نسمع لها ذكراً . ولا فى مداولات العالم السياسى ركزا. حتى كأنها خرجت من الدنيا وهى فيها ؟ فأجاب السيد : « إن البلوجستان بلاد قاحلة . وسهوب مرملة . وإن أهلها فى حالة بداوة وخشونة زائدة . وهذا ما ساعدها على الاحتفاظ باستقلالها فى الجملة . اللهم إلا بعض مناطق منها تابعة لبلاد الأفغان . وبعضها الآخر خاضع لإيران . وللإنكليز فيها بعض المراكز . وقد مدوا منها سكة حديدية إلى بلاد الهند . والذى زهدهم فيها قلة الاستفادة منها . وذلك لرداءة هوائها . وقحول أرضها » وما قاله السيد الأفغانى عن البلوجستان إنما كان فى سنة ١٨٩٢

* * *

وأفاض السيد يوماً فى وصف رحلته إلى أوروبا وما شاهده فى عواصمها الكبرى . وجعل يفاضل بين هذه العواصم فقال : إن عاصمتى الروسيا والنمسا (بطرسبرج وفينا) كباريس فى رونق الحضارة . وتزايين العمران . وقال إن فينا أكبر من الأستانة . فانتهزت قوله هذا . وجررته إلى الحديث عن العالم الإسلامى . وما يرجى له من ارتقاء ونهوض . وقلت له : إن الأستانة اليوم ليست كما كانت منذ ثلاثين سنة . كانت متأخرة فى عمرانها من عدة وجوه . ثم ما زالت تتدرج فى الحضارة واصطناع وسائل العمران حتى قطعت شوطاً بعيداً فى ذلك . فالمسلمون إذن دخلوا فى دور الانتباه واليقظة وضرورة الأخذ بمدنية أوربا . ومقومات حضارتها المساعدة على القوة . وبدأوا ذلك فى عاصمة خلافتهم كما هو الحال فى كل قوم انتبهوا وأرادوا النهوض من نومهم الطويل . وأرى أنه لا يمضى عليهم زمن حتى يبلغوا فى تقدمهم ما بلغته أمم أوروبا .

فلم يعجب السيد هذا التفاؤل المرح الذى آنسه فى كلامى وقال : إننا معشر المسلمين إذا لم يؤسس نهوضنا وتمدننا على قواعد ديننا وقرآننا فلاخير فيه . ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا إلا عن هذا الطريق . فقلت له ولكن ألا ترى

أيها السيد فرقاً بين حالتنا اليوم وحالتنا منذ ثلاثين سنة من حيث الرقى والأخذ بأسباب العمران مما يصحح لنا القول بأننا قد تقدمنا تقدماً ملموساً .

فقال إن ما نراه اليوم من حالة حسنة فينا هو عين التقهقر والانحطاط .

ــ ولمه ؟

ــ لأننا فى تمدننا هذا مقلدون للأمم الأوربية . وهو تقليد يجرنا بطبيعته إلى الإعجاب بالأجانب . والاستكانة لهم . والرضى بسلطتهم علينا . وبذلك تتحول صبغة الإسلام التى من شأنها رفع راية السلطة والتغلب إلى صبغة خمول وضعة واستئناس لحكم الأجنبى . فقلت : وما هى الطريقة القويمة التى ترى أن نسلكها لنتوصل إلى التمدن الصحيح حسب اعتقادك ؟

ــ لا بد من حركة دينية .

ــ زدنى إيضاحاً فى معنى الحركة الدينية .

ــ إننا لو تأملنا فى سبب انقلاب حالة عالم أوربا من الهمجية إلى المدنية نراه لا يتعدى الحركة الدينية التى قام بها (لوثير) وتمت على يده : فإن هذا الرجل الكبير لما رأى شعوب أوربا زلت وفقدت شهامتها من طول ما خضعت لرؤساء الدين ولتقاليد لا تمت بصلة إلى عقل أو يقين.. قام بتلك الحركة

الدينية . ودعا إليها أمم أوربا بصبر وعناد وإلحاح زائدين . فأصلح بذلك أخلاقهم . وقوم اعوجاجهم . وطهر عقولهم . ونبههم إلى أنهم إنما ولدوا أحراراً فلماذا استعبدهم المستعبدون ؟

ثم قال ونتج عن نشوء (البروتستانتية) فى أوربا مباراة ومسابقة بينها وبين عدوتها (الكاثوليكية) : فجعل كل فريق يرقب الفريق الآخر ويرصد أعماله ويحصى عليه حركاته وسكناته مخافة أن يسبقه إلى القوة والعزة والغلبة والارتقاء فى معارج المدنية . فكان كل منهما يسعى ويجد ويبذل مبلغ طاقته فى استجماع وسائل الرقى والتفوق على نده ومناظره . ومن هذه المنافسة بين الفريقين تولدت المدنية الحديثة التى نراها ونعجب بها . أقول : هذا رأى شيخنا الأفغانى فى أن المدنية الأوربية إنما هى وليدة المنافسة بين الكثلكة والإصلاح البروتستانتى . وكان ظهور الإصلاح على يد عميده المبشر به (لوثيروس) سنة ١٥١٩ م. وبعده بنحو خمسين سنة حدثت ملحمة (برثلماوس) فى باريس فكانت منشطة لما بدأ به (لوثيروس) وأقنعت الرأى العام الأوربى بلزوم الإصلاح واعتناقه . وهناك عوامل أخرى ذات بال سبقت الإصلاح ومهدت الطريق إليه وهى :

(١) الطباعة وكان ظهورها سنة ١٤٥٠م . وجعلها بعضهم

أهم العوامل حتى قال : إن الطباعة قلبت وجه الأرض وغيرت أحوال من عليها .

(٢) فتح القسطنطينية (سنة ١٤٥٣ م) من قبل الأتراك العثمانيين . وهجرة المثقفين من أبنائها البيزنطيين . وانتشارهم فى أوربا وخاصة إيطاليا حيث ظهرت النهضة التى يعبرون عنها باسم (Renaissance) .

(٣) اكتشاف رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٨٦ م وبذلك اتصل الغرب بالشرق . وتهيأت للظهور نهضة اقتصادية عالية

(٤) اكتشاف أمريكا من قبل (كريستوف كولومب) عام ١٤٩٢ م . فالعوامل الخمسة بما فيها الإصلاح البروتستانتى هى المؤثر المباشر فى ظهور مادنية أوربا . وقد وقعت هذه العوامل خلال سبعين سنة (١٤٥٠ — ١٥٢٠ م) يعنى أن قلق الأوربيين وعدم رضائهم عن حالتهم التى كانوا عليها ووثوبهم لالتماس أسباب الرقى والمدنية — كل ذلك كان فى القرن الخامس عشر . أى بعد انتهاء الحروب الصليبية بنحو مائتى سنة . فهل يعقل أن لا يكون لهذه الحروب علاقة بنشوء تلك العوامل الخمسة. لا جرم أن مخالطة الأوربيين للمسلمين فى عقر دارهم (سورية) أكثر من قرن ونصف ، عدا مخالطتهم لهم فى الأندلس مئات من السنين . هذا كله نبههم إلى سوء حالتهم فهبوا إلى تغييرها

بمختلف الوسائل التى منها العوامل الخمسة . (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) « قرآن كريم ».وشيخنا الأفغانى كان همه الملح أن يغير المسلمون ما بأنفسهم من رثاثة تقاليد، وغثاثة أخلاق بالرجوع إلى القرآن وتعاليمه . وجعله (أى جعل القرآن) روحاً للحركة الدينية التى دعا المسلمين إليها وجعل معوله فى تقدمهم ورقيهم عليها .

ثم رأيت أن أستزيد شيخنا الأفغانى تحديثاً عن الحركة الدينية التى ذهب إلى أن نهوض الأمة الإسلامية متوقف عليها فقلت له : إن ما قلته أيها السيد عن الحركة الدينية الأوربية وما كان من حاجة أهلها إليها لا يهمنا بقدر ما يهمنا أن نعرف نحن معشر المسلمين ما إذا كان مثل هذه الحركة مما نحتاج إليه فى نهضتنا . وإصلاح ما تشعث من أحوالنا . إذ أن هنالك فرقاً بيننا وبين الفريقين من حيث الحاجة إليها . إن سوء الحالة الروحية فى قارة أوربا وضغط التقاليد عليهم . وأخذ رجالها بأكظامهم — كل ذلك ساق (لوثيروس) إلى الصخب . وإثارة الشغب . ورفع الصوت بالدعوة إلى الإصلاح الدينى الذى ترجمت عنه أنت بالحركة الدينية . أما المسلمون فدينهم ما فى القرآن . وهو محفوظ من التغيير والتبديل . وليس من شأنه أن يضغط على نفوسنا . ولا أن يعطل حريتنا . وهو جدير بأن

يكون سبباً لسعادتنا . وجمع كلمتنا فى هذه الأزمنة الحاضرة . كما كان سبباً لسعادة أسلافنا وجمع كلمتهم الغابرة . ومن ثم لم أفهم معنى الحاجة إلى (الحركة الدينية) التى تدعو إليها فأجاب : إن حركتنا الدينية هى كناية عن الاهتمام بقلع ما رسخ فى عقول العوام ومعظم الخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها : مثل حملهم نصوص القضاء والقدر على معنى يوجب عليهم أن لا يتحركوا إلى طلب مجد أو تخلص من ذل . ومثل فهمهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان أو قرب انتهائه فهماً يثبط هممهم عن السعى وراء الإصلاح والنجاح فى نظير ذلك مما لا عهد للسلف الصالح به . فلا بد إذن من بعث القرآن وبث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور . وشرحها لهم على وجهها الثابت . من حيث يأخذ بهم إلى ما فيه سعادتهم دنيا وأخرى . قال : ولا بد أيضاً من تهذيب علومنا . وتنقيح مكتبتنا . ووضع مصنفات فيها قريبة المأخذ سهلة الفهم . فنستعين بتلك الكتب والعلوم التى تضمنتها على الوصول إلى الرقى والنجاح . ومن الخطأ أن نجعل هذه العلوم مقصودة لذاتها : كعلم النحو والبلاغة مثلا . وهى إنما وضعت لتكون وسائل لغيرها . فالطالب ينفق معظم سنى حياته فى الاشتغال بالنحو والبلاغة وحفظ مسائلهما ثم نراه بعد

هذا كله لا يقدر على إنشاء مقالة يعبر بها عما يقوم فى نفسه من الأفكار والآراء . وهنا أفاض السيد فى نقد طريقة اشتغالنا فى العلوم الموروثة والإطالة فيها على غير طائل حتى اهتدى الأجانب عنا إلى لباب تلك العلوم . وترتيب فصولها وأبحاثها . ثم استعانوا بها على تقويم أعوجاجهم ولم شعثهم وتركونا وراءهم نتخبط فى مهامه الحيرة . وفيافى الجهالة . ونحن فى غفلة عنهم . غير مبالين بما تجره غفلتنا علينا من الضعف وفقد العزة القومية . فلا بد إذن من (الحركة الدينية) . اهـ ما قاله السيد الأفغانى فى تفسير معنى حركته الدينية أو الاصلاح الدينى . وروح هذا الاصلاح الرجوع إلى القرآن وحده . كما قال أولا ثم فهمه فهماً صحيحاً حراً : وذلك يكون بتهذيب علومنا الموصلة إليه . وتمهيد الطريق إليها . وتقريبها من أذهان متناوليها من أبنائنا . وطلاب العلوم فينا .

٦

ومن ملح أخبار السيد الأفغانى بعد جيئته الثانية إلى الأستانة أن سمو خديو مصر عباس حلمى كان فيها . فمر يوماً وهو يتنزه بالكاغدخانة وهى أشهر مفترجات الأستانة ومتنزهاتها . فقيل له هذا السيد جمال الدين الأفغانى فى المتنزه . وحوله أصدقاؤه وخلص إخوانه . وكان الخديو يحب أن يرى الأفغانى ويجتمع به . غير أن اجتماع مثليهما لعهد عبد الحميد كان من الصعوبة بمكان . فاكتفى الخديو برفع يده مشيراً بالسلام إلى السيد جمال الدين ومن حوله . فوقفوا له وحيوه من بعد . واستمر الخديو آخذاً طريقه . فلم يلبث الجواسيس أن رفعوا تقاريرهم إلى السلطان يصفون فيها ما يتوقع من الضرر للملة فى هذه المقابلة بين الخديوى والأفغانى . ولم يقفوا عند حدود الحق والواقع بل تخطوها كما هى شنشنتهم إلى القول بأن الخديو خلا بالسيد الأفغانى ثمّ (أى فى الكاغدخانة) وتحادثا طويلا فى شؤون الخلافة . وما يجب أن يكون مستقبلها إلى غير ذلك من الأكاذيب فلم يكن بأسرع من أن استدعى السلطان السيد جمال الدين إلى قصره . وأطلعه على تلك التقارير فقرأها السيد وتبسم وقال له

بأنه لم يجتمع بالخديو ولا كلمه . وإنما أشار إليه الخديو وإلى من حوله وهو فى عربته بالسلام . ثم قال السيد للسلطان إن نبينا (ص) كان له من صحابته جماعة يخبرونه بما ينبغى أن يعرفه من أخبار الناس . وما يجرى بينهم من شؤون وحوادث . لكنه (صلى الله عليه وسلم) ما كان ليأتمن على هذا العمل إلا من توفرت فيه الخلال الحسنة كالصدق والإخلاص وسلامة الوجدان وحسن القصد لا أمثال جواسيسك الذين حولك . فضحك السلطان ووافقه على ما قال ومزق التقرير بين يديه .

وكان للسيد جمال الدين جرأة ودالة على السلطان لم تعهد لغيره. وحدثنى صديق صادق من أدباء دمشق أنه سمع من المرحوم (مصطفى باشا القنواتى) أنه كان للسيد جمال الدين صديق يعز عليه من المصريين فالتمس السيد من السلطان رتبة وزيادة فى الراتب لهذا الصديق فوعده السلطان بذلك . ومضت أيام على هذا الوعد . فكتب إليه يستنجزه وعده . فلم يأت الكتاب بنتيجة أيضاً . فاحتد جمال الدين . وكان حديد المزاج حتى قال فيه الشيخ محمد عبده (وطالما هدمت الحدة ما بنته الفطنة) واستأذن السيد على السلطان فأذن له . فدخل عليه ووقف أمامه منتصباً على رجليه وقد بدت عليه آثار الانفعال . وقال بصوت متهدج : أمير المؤمنين كسر قلبى . أمير المؤمنين كسر قلبى .

فلاطفه السلطان وهدأ خاطره وسأله عن الأمر الذى أزعج باله فلما أخبره به قال : إن هذا أمر طفيف ما كان ينبغى أن تغتاظ من أجله إلى هذا الحد ثم أمر بالرتبة وزيادة الراتب للمصرى حسب طلب السيد . ولما خرج جمال الدين من هذه المقابلة ناوله الحاجب كيساً فيه خمسمائة ليرة عثمانية ذهباً . وقد ذكر هذه الحادثة بعض من ترجم للسيد جمال الدين وقال إن السلطان لما رأى انفعال جمال الدين وسأله عن سببه أجابه السيد قائلا : « إنما أتيتك لأستميح جلالتك أن تقيلنى من بيعتى لك لأنى رجعت عنها » . وقد استبعد محدثى بالحديث هذه الرواية كل البعد وأن يكون جمال الدين ممن تبلغ به الحدة إلى هذا الحد وإنما الخبر الحق ما قاله القنواتى باشا الذى ربما كان سمعه من لفظ عزت باشا العابد فى الأستانة وكان لايفارق مجلسه . كما كان عزت باشا لا يفارق مجلس السلطان .

ولما كان السيد فى روسية أحب القيصر أن يراه فاستدعاه إليه فكان مما سأله عنه كرهه لشاه إيران والسبب فى هذا الشقاق الناشب بينهما . وقياصرة الروسية وحكوماتها يهمهم جداً أن يعرفوا أسرار سياسة إيران وخفايا أحوالها الداخلية فشرح السيد للقيصر بسذاجة الطفل سوء حالة إيران . وخرق ملكها واستبداده برعيته . وأنه نصح له بأن يدخل الأنظمة الدستورية . والتراتيب

الشوروية إلى مملكته . فأبى الشاه عليه ذلك وامتعض من جمال الدين وعمل على إخراجه من بلاده . قال وهذا هو سبب الشقاق .

ولما سمع القيصر هذا من جمال الدين تمعّر وجهه وكلح . وقال له الحق مع الشاه . وأى ملك يرضى أن يتحكم فلاحو مملكته فى ملكه ؟ فسكت السيد وكان لا يعدم جواباً على ما قاله القيصر لو فسح له المجال . لأن القيصر أعرض عنه . وتقدم إلى شحنة مملكته بأن يعملوا على إخراج جمال الدين من بلاده من فورهم .

وحدثنى صديق آخر من أعيان دمشق بلطيفة من لطائف السيد الأفغانى مع جواسيس السلطان قال : إن سيادة شريف مكة غضب على أحد المكيين المقيمين فى الأستانة وخشى هذا المكى على نفسه من تعقب الشريف له . فالتجأ إلى منزل السيد جمال الدين . معتصما به . فطمأنه السيد وهدأ روعه . غير أن اعتصامه هذا خلق للجواسس شغلا يستغلونه ويشتغلون به . فجعلوا يطوفون بمنزل السيد ويراقبون اللاجئ المذعور . فكان السيد يرق له ويصحبه فى عربته أحياناً إلى مفترج (الكاغدخانه) الذى ذكرنا أنه كان يلم بها للنزهة .

فقيل له يوماً : أبعد عنك هذا الرجل (يعنون المكى اللاجئ

إليه) وأرح نفسك من مضايقة الجواسيس لك بسببه . فأجابهم متعجباً مالى وللجواسيس . هؤلاء سفراء الدول إذا لجأ إليهم لاجئ حموه من كل أحد حتى من هؤلاء الجواسيس . وأنا (سفير الله) فى هذا البلد أفلا ينبغى أن يطرد هؤلاء الجواسيس عنى كما طردوا عن سفراء البشر ؟ !

وسأل بعض المتحذلقين من طلاب العلوم الدينية السيد الأفغانى عن الإيمان : هل يزيد وينقص أولا ؟ فقال : « أما الإيمان فى القرى فلا يزيد ولا ينقص . وأما فى العاصمة فيزيد وينقص فى كل ساعة كإيمان السلطان عبد الحميد الذى يحيط به هؤلاء الجواسيس » . وكأن السيد فى مقاله هذا يريد أن يقول إن حالة السلطان الروحية تبقى مضطربة غير مستقرة على حال ما دام هؤلاء الجواسيس حوله يخبرونه بما يقوى ثقته تارة ويضعفها تارة أخرى . فإذا صدقهم نقص إيمانه وإذا لم يصدقهم زاد .

ومن أمتع ما روى من لطائف السيد الأفغانى وهو فى مصر أنه كان واقفاً فى ناحية من ميدان باب الخلق مع طائفة من أصدقائه ينتظرون مرور جنازة لأحد أمراء العائلة الخديوية . وكان على مقربة منهم سرب من النساء فجعلن ينظرن إلى السيد مستغربات هيأته وقيافته . وزاد فى انتباههن إليه ما رأينه من حفاوة رفاقه به . والتفافهم حوله . ومسارعتهم إلى خدمته . وهو

يضاحك هذا ويطارح ذاك . وأخذت النسوة يلتفتن إليه من وقت إلى آخر ويتغتغن* ضاحكات أحياناً ويتبادلن كلاما حسبه رفاق السيد استخفافاً بالسيد فقال له بعضهم : يا أستاذ اخفض من صوتك وأقلل من مزاحك . فإنى أحسب هؤلاء النسوة ينبطن عليك . فمضى السيد فى حديثه وقال : دعهن فإنى لا أبالى بتنبيطهن . فكان جوابه مثاراً للضحك وتطارح النكتة فى الجانبين . وقوله (ينبطن) عليك معناه فى اللهجة المصرية يتندرن عليك أى يجعلنك موضوعاً للنادرة والنكتة .

ولعل التنبيط مأخوذ من اسم (النبط) وهو جيل معروف . ومعظمهم يشتغلون بالفلاحة . فيكون فى طباعهم خشونة وجفاء . فمعنى نبط عليه كلمه كلاماً خارجاً عن اللياقة يشبه كلام الأنباط .

وقد عرف من رأى السيد الأفغانى أنه يجوز استعمال الدخيل واللفظ الأعجمى فى الكلام العربى حتى روى عنه أنه قال : إذا أردتم استعمال كلمة غير عربية فما عليكم إلا أن تلبسوها كوفية وعقالا فتصبح عربية . وقد كنى بالكوفية والعقال عن التعريب فكما أن الرجل الأعجمى إذا ألبسته لبوس العرب يصبح عربياً فى ظاهره كذلك الكلمة الأعجمية إذا عربتها أى ألبستها صيغ الكلمات العربية تصبح عربية جائزة الاستعمال . وهذا من

* التغتغة صوت ضحك النساء إذا أردن إخفاءه وهو يغالبهن .

السيد توسع بعيد فى استعمال الكلمات الأعجمية . يقبله بعضهم ويرده آخرون . وروى صديقنا الأمير شكيب أرسلان (رحمه الله) أن السيد جمال الدين قال فى قول الله عز وجل (وإنه تعالى جد ربنا) أن (جد) معرب (كدّ) ومعناه العرش بالفارسية أو الهندية .

ومن أشهر آراء السيد جمال الدين التى تتعلق بأبحاث اللغة ما رواه الأستاذ اللغوى المرحوم الشيخ عبد الله البستانى من أن السيد قال فى هجو بعض البلداء : هذا رجل من نسل البقروت . قال فعابوا عليه استعمال كلمة (البقروت) فأجابهم ألا تقولون : جبروت ورهبوت وملكوت ؟ فلماذا تمنعون عنى قول (بقروت) ؟ فاعترضوا عليه بأن البقروت لم ترد فى كلام العرب . فقال وهل تريدون منى أن أنكر نفسى ا هـ . وقد علق الأستاذ البستانى على ما قاله الأفغانى مستحسناً . وعلق الأب أنستاس الكرملى على قوليهما مفنداً مستهجناً وعلقت أنا على أقوال الثلاثة فى مقال نشر فى مجلة مجمعنا العلمى العربى (جزء ٨ صفحة ٦٢٦) موافقاً فى شىء ومخالفاً فى شىء . ومما لاحظته على شيخنا الأفغانى أنه جعل بقروت مصدراً بدليل حمله لها على (جبروت) و (رهبوت) و (ملكوت) وهى مصادر . ولا يصح أن تكون (بقروت) مصدراً فى العبارة التى قالها إذ لا يقال فلان من

نسل البقرية . وإنما يقال فلان من نسل البقر والبقروت ليست بمعنى البقر . حتى قرأت أخيراً للمرحوم المخزومى باشا أن عبارة جمال الدين هى (سياسة بقروتية فى مملكة فرعونية) ولما اعترضوا عليه أجاب : كيف يصح قولهم ملكوت وجبروت هكذا يصح عندى بقروت والسلام . اهـ

إذن لا غبار على ما قاله السيد فى عبارته المذكورة فإنه إنما استعمل (البقروت) فيها مصدراً لا جمعاً كأنه قال سياسة بقرية . وكأن من روى الخبر للأستاذ البستانى إنما رواه من حفظه لا نقلا عن المخزومى باشا فى كتابه (خاطرات جمال الدين) .

٧

مر فى صدر الكتاب أنى كنت أنا والأستاذ رشيد رضا شريكين فى التعلق بالسيد الأفغانى وتتبع أخباره . وتدوين آثاره . ولما ودعت الشيخ رشيداً ميمماً شطر الأستانة سنة ١٣١٠ هـ (١٨٩٢ م) كان أول ما أوصانى به أن أقصد إلى السيد الأفغانى وأبلغه تحيته وإخلاصه فى حبه وأن أكتب إليه بكل ما أرى وأسمع من أحواله وأطواره . واتفق أن تأخر لقياى السيد بعد وصولى إلى الأستانة لأسباب عرضت يومئذ وكتبت بذلك إلى الصديق (الشيخ رشيد) فجاءنى أول كتاب منه مؤرخ فى ٩ جمادى الثانية من تلك السنة (أى سنة ١٣١٠ هـ) قال فيه بعد أن أسهب فى وصف رحلة قام بها من بلده (القلمون) على مقربة من طرابلس الشام إلى بيروت وهى أولى سفراته إليها . ولم يكن قبل شاهد ذلك السِّيف الجميل سيف البحر الممتد بين طرابلس وبيروت . وما انتثر عليه من قرى ومزارع وخمائل ومناظر خلابة . وصف الشيخ رشيد ذلك كله فى كتابه إلى بأبلغ قول . وأمتع أسلوب . وقال فى خلال الوصف ما نصه :

« إذا أسعدكم البخت أو أكسبكم السعى التشرف بلقاء حكيم

الوقت السيد جمال الدين فإنه ربما يسألكم عن سورية ولبنان لا عن أوربا أو بلاد الروم . وإذا سأل فهو يسأل عن الفتيل والنقير والقطمير » . كأن الصديق رحمه الله يريد أن يدل على فى وصف هذا المسير إلى جبل لبنان وأن ما قاله سيكون لى مادة أتحف بها السيد جمال الدين حين اجتماعى به . أو أن أقرأ عليه كتابه بجملته . وما كان أشد إعجاب الشيخ رشيد بكتابه هذا . ومعه الحق فى ذلك : فإن الكتاب طرفة أدبية تاريخية تهم لبنانا وساكنيه أكثر من غيرهم . ولعلنا ننشره برمته فى بعض المجلات .

ثم قال الشيخ رشيد فى آخر كتابه : « اعتذرتم عن تأخير المكاتيب بانتظار الاجتماع بهذا الرجل العظيم (يريد السيد الأفغانى) لتخبرونا عما تشاهدونه منه . وما تقفون عليه من شأنه . لما تعلمون له عندنا من المكانة التى لم يحلها من الناس أحد سواه . فنعم الاعتذار وحبذا الشفيع . ونرجو الآن أن تكونوا اجتمعتم به . وصرتم من المحسوبين عليه . وأنكم توافونا قريباً بما يشرح الصدر من أخباره . ويقر العين من آثاره . ولا نشك بأنكم إذا صار لكم مع سيادته لسان ينطق تخبرونه عن أخيكم بأنه مستغرق فى حبه . راج للسعادة بقربه . له لسان لا ينفك يهتف بالثناء عليه . ويتمنى أن يتمثل للخدمة بين يديه . حيث تعرفون ذلك منا حق المعرفة . ولا أراك تذهل عن إفادتى : هل

يمكن لأمثالنا ملازمته إن جئنا الأستانة أم لا ؟ » اهـ .

وكنت قبل وصول هذا الكتاب من الشيخ رشيد اجتمعت بالسيد الأفغانى وعرفته من خبرى وخبر الصديق ومبلغ تعلقنا به . وبالعمل على بث مباديه وتعاليمه ما جعله يدعو لنا . ويعطف علينا . ويأمل الخير فينا . وكتبت إلى الأخ الرشيد بذلك . فلم ألبث أن جاوبنى على كتابى بكتاب آخر مؤرخ فى ٢١ رمضان من السنة المذكورة . وقد قال فيه ما نصه : « لقد ألقى إلى كتابكم الكريم وأول ما أجيب عليه هو أداء واجب الشكر والثناء على ما أتحفتمونى به من الرغيبة العظمى ألا وهى البشارة بنوالكم شرف الاجتماع بحكيم العصر . ونادرة الدهر . أستاذنا السيد جمال الدين حفظه الله تعالى وزاده رفعة وجلالا . وفوزكم من لطفه ومكارمه بالالتفات والرعاية الخصوصية . وإفصاحكم بأن هذا كان نتيجة درسنا سيرته الحسنة بالإمعان والإنعام . مع ما انضم إلى ذلك من قيامكم بحقوق الإخاء بإجابة ما رغبت به إليكم من إجراء ذكرى لديه . وشرح بعض شأنى عليه . وعرض أكبر مقاصدى على مسامعه الشريفة . ألا وهو الحصول على صحبته بصفة تلميذ ملازم . أو مريد خادم . وبعبارة أخرى أننى أكون (أبا تراب* الثانى) أدور معه حيث يدور .

* مر أن (أباتراب) واسمه (عارف) كان الخادم الخاص للسيد جمال الدين.

لكنكم أديتم هذا على غير وجهه : إذ أنكم أبدلتم لفظ (الملازمة له) بلفظ (التردد عليه) ولا ريب أنكم فهمتم ذلك من عبارتى السابقة : إما لقصورها عن بيان ما شرحته الآن . وإما لذهول منكم . كما هو شأن الإنسان . وعلى كل حال نقول جعل الله سعيكم مشكوراً . وعملكم مبرورا . وحظكم من الكمال موفورا. ونرجو أن تؤدوا الأمانة فى الكرة الثانية على وجهها :

وتلطف واجر ذكرى عندهم علهم أن ينظروا عطفاً إلى

وفى نفسى أن أكاتب حضرة السيد . وأطلب منه ما كلفتكم بعرضه عليه أيضاً (أى ملازمته) فإن أجاب بالقبول فإننى أجتهد كل الاجتهاد فى الحضور لطرفكم . وأن أبى (السيد) على فإننى أجتهد بعض الاجتهاد فى المجىء للتشرف بزيارته . والتيمن بمشاهدة غرته المباركة : هذا إذا بقيتم فى الأستانة . وإن حضرتم إلى طرابلس قريباً فإننا نتذاكر فى الإيجاب . وأقل ما يناجينى به ضميرى من الفائدة فى الكتابة إلى (السيد جمال الدين) قول الشاعر :

عسى يذكر المشتاق فى طى رقعة فحسب الأمانى أن ترينى رقاعه

أظنكم لم تسألوا حضرة (السيد) عما وعد به فى رسالة إبطال مذهب الدهريين : من تأليف رسالتين وافيتين إحداهما فى الرد عليهم (أى على الدهريين) والأخرى فى مدنية الإسلام » .

انتهى ما بعث به الشيخ رشيد إلينا . وقد عتب فيه علينا .
مذ أبدلنا كلمة التّرد دبالملازمة . ولعلنا تصرفنا فى الكلمتين
تصرفاً مقصوداً اقتضاه الحال فى ذلك الوقت .

ولما جاءنى هذا الكتاب الثانى من الشيخ رشيد زرت السيد
جمال الدين وأطلعته على الكتاب أو ذكرت له خلاصته . لا أدرى
أى ذلك كان . فعاد السيد إلى الثناء على الشيخ رشيد وشدة
اهتمامه بأمر الإسلام والمسلمين . وقال لى : إن الشيخ رشيداً
أرسل إليه أيضاً كتاباً خاصاً . فرجوت من السيد إذ ذاك أن
يكتب إليه جواباً بخطه ويسلمنى إياه لأرسله إليه . فاعتذر بعدم
وجود ورق وأقلام لديه . أقول : وعدم وجود الورق إما لأن
السلطان عبد الحميد لايريد ذلك كما قيل لى . وأما لأن السيد
لا يعنى بالكتابة ولا يألفها وكل ما اعتاده أن ينثر كلامه على
من حوله نثراً . فيلتقطوه مرجانا ودرا . لكننى خوفاً من عتب
الشيخ رشيد ألححت على السيد الأفغانى بأن يكتب إليه جواباً
مختصراً بقلمه البليغ . وكنا إذ ذاك وقوفاً وكأنى الساعة أتمثل السيد
منتصباً فى بهو المسافرخانة ويداه على كتفى وهو يبتسم ويعتذر
عن الكتابة إلى الشيخ رشيد ويقول لى : أنت القلم الأعلى
والكاتب البليغ . ولك أنت أن تنوب عنى بإبلاغ سلامى
وتحياتى إليه .

لا جرم أنى لا أستحق أن يقول فى السيد الأفغانى ما قال، غير أن الرجل هكذا خلقه الله متودداً مؤانساً . ولم يخاتمه (جعظرياً[1] جواظاً) ولا (مدلساً موالساً)[2] .

ثم انصرفت من مجلس السيد وكتبت إلى الشيخ رشيد رحمه الله بما قلته له وبما قاله لى . وباعتذاره عن الكتابة إليه . واثقاً بأنى أنوب عنه فى الجواب حينما نلتقى فى طرابلس وهكذا وقع .

---

(١) فى الحديث : أهل النار كل جعظرى جواظ . الجعظرى : الفظ الغليظ المتكبر . وقيل هو الذى ينتفخ بما ليس عنده وفيه قصر . والجواظ الجموع المنوع . وقيل الكثير اللحم المختال فى مشيته . وقيل القصير البطين . اﻫ (نهاية) .

(٢) الموالس : المداهن المخادع .

٨

هذا ولنختم الكلام عن شيخنا الأفغانى ببحث من أوصافه أرجو أن يستطرفه القراء وأن يجدوا فيه متعة وفائدة ذلك أننى كنت أعملت المقارنة بين المؤرخ ابن خلدون وبين السيد جمال الدين بمناسبة ما كتبه- الكثيرون من الكتاب المعاصرين حول المقارنة أو المشابهة بين ابن خلدون وغيره من فحول الكتاب والفلاسفة الأقدمين : مثل أرسطو وأبى العلاء المعرى ومونتسكيو وأوغست كونت وميكيافلى . وسبنسر . وتفصيل هذه المقارنة وبيان وجه الشبه فيها بين ابن خلدون وبين هؤلاء العظماء مبسوط فى المدونات المعاصرة التى خصها كتابنا بترجمة المؤرخ العربى الكبير . ولكن .ألا يخطر بالبال أن يكون ابن خلدون مشابهاً لواحد من فلاسفتنا الشرقيين المعاصرين ؟

نعم إن ابن خلدون يشبه ولا ريب فيلسوفاً مسلماً سياسيًّا ثائراً عصريًّا ألا وهو أبو الثورات السيد جمال الدين الأفغانى — لا من وجه واحد بل من عدة وجوه :

درس كل منهما العلوم الإسلامية . ثم تفوق على شيوخ زمانه بمهارته فى الحكمة والفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع وترغيب المسلمين

فى دراستها والاستفادة من حقائقها .

كان كل من الرجلين يشتغل بالسياسة ويحرص على الرئاسة . كان كل منهما سليم الصدر . سهل الاستمالة . طاهر القلب . ظاهره وباطنه سواء : كما كان كل منهما متسرعاً حديد المزاج ؛ فابن خلدون وصفه صديقه وزير الأندلس (لسان الدين بن الخطيب) بأنه بعيد عن التأنى . وقال : إن هذا الخلق هو السبب فى نكباته . وتحامل رجال الدول عليه .

وبمثل ذلك وصف الشيخ محمد عبده جمال الدين : فقد كانا معاً فى باريس ينشئان جريدة (العروة الوثقى) ويسعيان فى تحقيق التعاون والتفاهم مع أقطاب السياسة الأوربية من أجل الوصول إلى بعض أمانى الشرقيين . لكن جمال الدين كان يحتد أحياناً أثناء المناقشة مع رجال السياسة كغلادستون مثلا . وينتج عن حدته وتسرعه انهيار ما كانا أسساه حتى قال الشيخ عبده فى وصف حدة جمال الدين : «وطالما هدمت الحدة ما بنته الفطنة» .

كان كل من ابن خلدون وجمال الدين يُعمل عقله فى فهم تعاليم الإسلام مستقلا مجتهداً . لا متابعاً مقلداً . وكان كل منهما يعنى فى توفير مصالح المسلمين العامة . ويحرص على إصلاح الجماعات الإسلامية من طريق التوفيق بين أصول الإسلام الصحيحة وبين قواعد علم الاجتماع التى ظهرت فائدتها فى

إصلاح شؤون البشر . وانتظام أحوال الجماعات . وإن حرص الفيلسوفين (ابن خلدون وجمال الدين) على تطبيق فكرتهما هذه فى العالم الإسلامى من دون تقية ولا جمجمة وكذا مقاومتهما للخرافات والتقاليد الملصقة بالدين — كل ذلك أثار فى وجههما الخصوم . وأوجد لهما حساداً منافسين فى كل بلد نزلا فيه . أو بلاط ملكى استدعاهما صاحبه إليه .

فما أشبه حالة ابن خلدون فى بلاط غرناطة وفاس وتونس والقاهرة منذ خمسة قرون بحالة جمال الدين فى بلاط كابل وطهران والقاهرة والأستانة فى عصرنا الحاضر .

وإن كان السيد الأفغانى قد ابتلاه الله من الشيوخ الجامدين بالشيخ عليش الذى كان يحمل عكازته ويروغ بها على السيد وتلاميذه وهم يدرسون الفلسفة فى زوايا الأزهر — فإن ابن خلدون ابتلاه الله وهو فى تونس بشيخ جامد أيضاً وهو (ابن عرفة) الذى كان يحسد ابن خلدون على إعجاب الناس به . وإقبال الطلاب على حلقة درسه . حتى قال ابن خلدون نفسه : إن ابن عرفة هذا كان يسعى به لدى حكام تونس ويغريهم بتغريبه والبطش به .

عرض (بترو) ملك الإسبانيول على ابن خلدون أن يريح نفسه من العناء . ويقيم عنده . وهو فى مقابل ذلك يغدق عليه

من زهرة الحياة الدنيا ما تقر به عينه وينعم عيشه فأبى . وكذلك السلطان عبد الحميد عرض على جمال الدين أن يريح نفسه من عناء السياسة ومقاومة خصومه وهو فى مقابل ذلك يفرد له قصراً مجهزاً بأثاثه ورياشه وخدمه . ويزوجه إحدى وصيفات يلدز . فأبى عليه ذلك . وقال : إنه لو فعل لأستغرب منه كما يستغرب من الشيخ عليش المغربى إذا جلس مع تلاميذه فى أحد مشارب الأزبكية.

مات ابن خلدون غريباً فى مصر ودفن فى مقابر الصوفية . خارج باب النصر . وقبره غير معروف شأن من يموت غريباً عن وطنه . وهكذا جمال الدين الأفغانى : فإنه مات فى الأستانة غريباً . ودفن فى تربة (شيخلر مزارلغى) فى نشانطاش وكاد قبره يندرس لو لم يتداركه المستر (كراين) الأميركى فبنى له ضريحاً فخماً بلغت نفقاته عشرة آلاف دولار كما قيل* .

---

* ثم نقل رفات السيد من الأستانة إلى بغداد فبلاد الأفغان كما مر فى صدر الكتاب . وكانت وفاته بعلة السرطان الناشب فى فكه الأسفل . وقد أشار الشيخ إبرهيم اليازجي إلى هذا فى رثائه مذ قال: «قضى بعلة السرطان . وقد نشبت منه بين الفك والنحر . ودب فى مجرى الفصاحة منه . ولا عجب أن يدب السرطان فى البحر» . وزعم بعض الأطباء أن علة السرطان نتجت عن كثرة شرب السيد للشاى وتدخينه بالسيكار الإفرنجى واستكثاره من الملح فى طعامه . وسمع هذا بعض أصدقاء جمال الدين فقال :

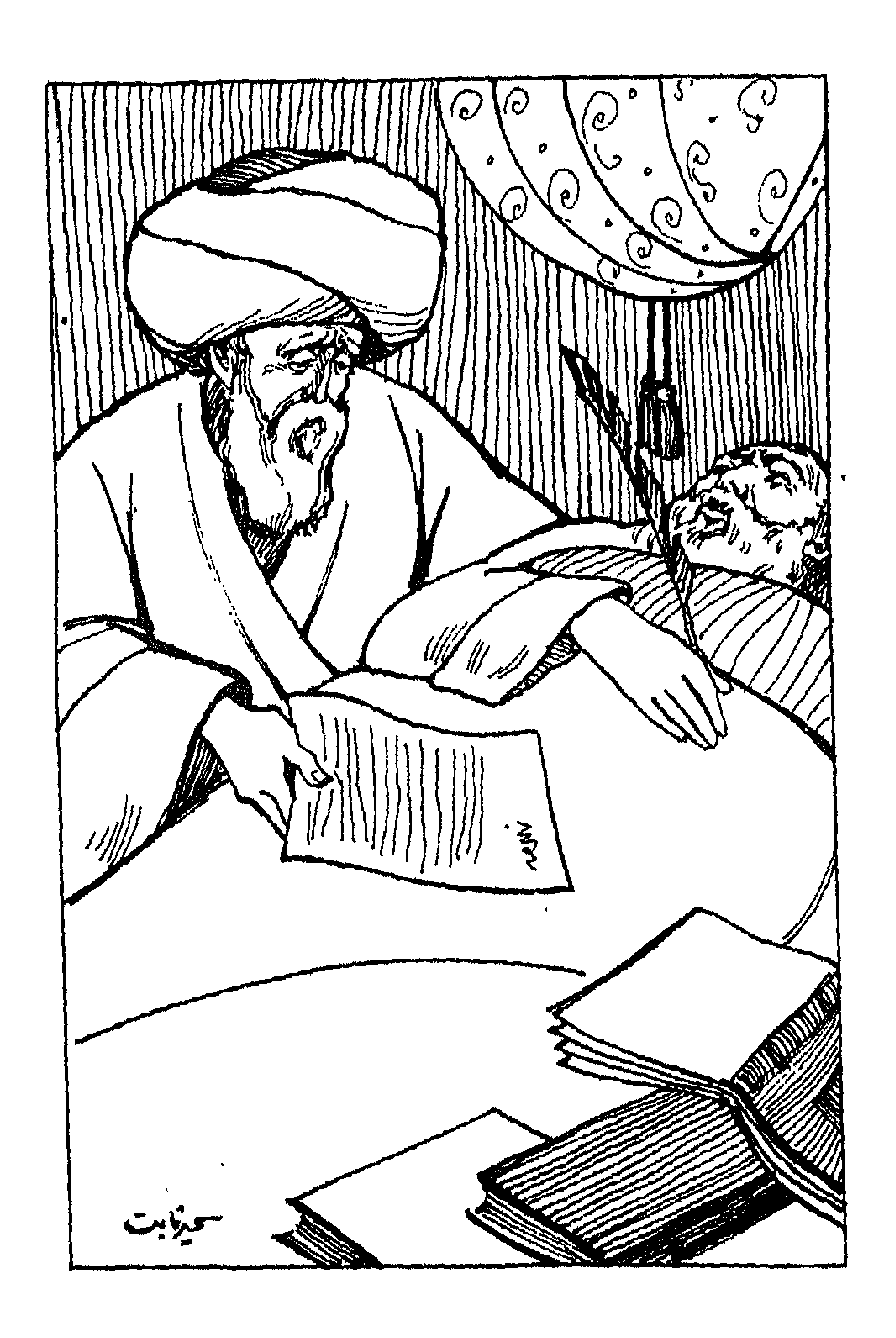
الملح والشاى مع الدخان   أودت بروح شيخنا الأفغانى

كان ابن خلدون آخر نجم سطع فى سماء التفكير الإسلامى الحر . كما قال عنه كاتب ترجمته العلامة الألمانى الأستاذ (فون فيزدنكونك) :

عاش ابن خلدون فى أشد أزمان العالم الإسلامى إظلاماً من الوجهة الاستقلالية والسياسية ؛ فكان كنجم أنار تلك الظلمات ثم أفل .

كان حنيفاً مسلماً شديد الغيرة على دينه ، وملك قومه . وقد رأى هذا الملك مفككك العرى مضمحل القوى . استولت عليه الأعاجم من أواسط آسيا إلى شمال أفريقيا إلى غرب أوربا : دويلات مغولية وتركية وبربرية . قامت فى كل مكان على أنقاض الدول العربية الصريحة . ساح بنفسه فى تلك الممالك : من أشبيلية فى الغرب إلى الحجاز والشام فى الشرق . رأى بعينى رأسه (تيمور) المغولى فى الشرق يجتاح بلاد الشام . كما رأى بعينى رأسه (بترو) الإسبانى فى الغرب يَجْرَمِّز ويجمع نفسه للوثوب على غرناطة آخر مملكة عربية فى الأندلس . كان ابن خلدون يرى ذلك فتتقطع نفسه حسرات على ذلك الملك الضائع والبناء المتقوض .

كان يسيح فى العالم الإسلامى فاحصاً منقباً : فيدرس . ويكتب . ويؤلف . ويهز النفوس الجامدة . ويتلتل الهمم الخامدة .



كان كلما صرخ لم يجب إلا برجع الصدى . وكلما حذر وأنذر لم يقابل إلا بالإعراض والجفا .

أنطفأت تلك الشعلة وأغمض (ابن خلدون) عينيه فى ذلك الظلام الدامس وبعد خمسة قرون من موته عاد فعاش ونشر من قبره ممثلا فى جسم جمال الدين الأفغانى .

فتح جمال الدين عينيه . ورأرأ بتوأمتيه . وأدارهما يمنة ويسرة فى جنبات العالم الإسلامى .

فماذا رأى ؟

رأى ما كان رآه (ابن خلدون) منذ خمسة قرون . رأى الظلام ظلاماً . والقوم نياماً . رأى تيمورلنك المغولى ممثلا فى السلطان عبد الحميد التركى . وبترو الإسبانى متقمصاً فيكتوريا ملكة الإنكليز .

قام جمال الدين من قبر (ابن خلدون) فكان همُّه همَّه . وغرضه من هذا النشور غرضه .

هلموا حقيبة السفر . وعصا السياحة . ساح جمال الدين فى العالم الشرقى والغربى : إلى مكة ومصر وطهران والإستانة . إلى بطرسبرج وفينا ولندن وباريس . رأى موتاً فى جانب . وحياة فى آخر . رأى اتكالا وقناعة فى قوم . وكدحاً وطمعاً فى آخرين . رأى جهلا وبطالة وكسلا هنا . وعلماً وعملا ونشاطاً هناك .

هذا (الشيخ عليش) فى مصر و (حسن فهمى أفندى) فى الأستانة يقاومان جمال الدين كما قاومه (ابن عرفة) فى تونس و (القاضى البساطى) فى القاهرة منذ خمسة قرون . وهو فى شكل ابن خلدون . والتاريخ يعيد نفسه كما يقولون . أيها المنشور من تحت رجام القبور . عد إلى الخطابة والكتابة . وارفع صوتك بالحض والإنذار . ومر المسلمين بترك الخلافات . ونبذ الأوهام والخرافات . هات أسمعنا التوجع والأنين وآهات (أرميا الحزين) : « بكائى* على السالفين . ونحيبى على السابقين . أين أنتم يا عصبة الرحمة . وأولياء الشفقة . أين أنتم يا أعلام المروءة . وشوامخ القوة . أين أنتم يا آل النجدة وغوث المضيم يوم الشدة . أين أنتم يا خير أمة أخرجت للناس . تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر . أين أنتم يا أيها الأمجاد الأنجاد . القوامون بالقسط . الآخذون بالعدل . الناطقون بالحكمة . المؤسسون لبناء الأمة . ألا تنظرون من خلال قبوركم . إلى ما فعله خلفكم من بعدكم وما أصاب أبناءكم . ومن ينتحل نحلتكم . انحرفوا عن سنتكم . وحادوا عن طريقتكم . فضلوا عن سبيلكم . وتفرقوا فرقاً وأشياعا حتى أصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفاً

---

* كلمة الندب هذه مقتبسة من جريدة (العروة الوثقى) لسان حال السيد جمال الدين الأفغانى قالها متوجعا متفجعاً منذ ست وستين سنة .

وتحترق الأكباد حزناً . أضحوا فريسة للأمم الأجنبية . لا يستطيعون ذوداً عن حياضهم ولا دفاعاً عن حوزتهم . ألا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل . ويوقظ النائم . ويهدى الضال إلى سواء السبيل » .

ولكن هل يئس (جمال الدين) من يقظة الشرق وسعى الشرقيين فى الإصلاح ؟

كلا لم ييأس : نعم رأى شجرة العالم الإسلامى أصبحت أعواداً يابسة . غير أنه تراءى له من خلال تلك الأعواد والأشواك وريقات خضر فتهلل وجهه بعد العبوس وانتعشت نفسه بعد القنوط وساءل نفسه قائلا :

أهذه الأوراق الخضر المتفرقة هنا وهناك من الشجرة — أهى أوراق قديمة باقية من الحياة الأولى ياترى ؟ أم هى أوراق جديدة حييت بحياة جديدة ؟

ومهما يكن فإن فى الشجرة اخضراراً . وفى المريض رمقاً . وفى الجسم ذماءً .

فلنجتهد إذن ولنعمل على إحياء مجموع الشجرة . عمل (جمال الدين) واجتهد حتى كل وتعب . ولقى من حلو الحياة ومرها ما لقيه (ابن خلدون) الأول . كلا الخلدونين لم يخلف ولداً . وفرقٌ بينهما : ابن خلدون المغربى خلف مقدمته الاجتماعية

المشهورة . أما ابن خلدون الأفغانى فإنه لم يخلف كتباً ولا مقدمة .
وإنما خلف الأمة التى أيقظها فاستيقظت . ونصح لها فانتصحت
وأخذت تخوض عباب الحياة . بجد وثبات . فهى لا تلبث
أن تصل إلى ساحل النجاة إن شاء الله .

روى الشيخ عبد الرشيد إبرهيم (الرحالة الروسى المشهور)
قال : دخلت على الشيخ جمال الدين فى أخريات أيام مرضه .
فأشار إلى بيده أن أُدن . فدنوت منه . وكان لا يستطيع الكلام .
فأخذ قلماً وورقة وكتب فيها : « تشهد يا ألله أن كلام النبي
(ص) قبيل وفاته : أمتى أمتى . وأنا أقول : ملتى ملتى » قال :
وبعد نحو ساعتين رجعت إليه وإذا بهم يقولون توفاه الله ا هـ

رقم الإيداع		١٩٨٧ / ٥٢٨٦
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٢١٤٠-٦	ISBN

١ / ٨٦ / ٥٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



بهذا الفعل الجميل (اقرأ) : تدعوك دار المعارف إلى قراءة تراث هذه السلسلة العريقة .. بأقلام كبار كتابنا .. لتعيش معهم .. كما عاش الآباء والأجداد .. وتكوِّن فى مكتبتك موسوعةً متفرقة فى فروع المعرفة المختلفة .

وإيمانًا منا بأن القراءة هى أقصر الطرق إلى الوعى والثقافة .. فقد يسَّرنا لك ذلك فى إخراج جيد .. وسعر زهيد .

٤٠٧٥٨ / ٣

